المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم
إهداء

إلى كل قلبٍ أنهكه الشك، وخلخلت يقينه زوابعُ العصر...
إلى كل روحٍ تبحث عن سكينتها في ظل "تنزيل الكتاب لا ريب فيه"...

إلى من أثقله الخوف من أرزاقٍ لم تأتِ، ومن غدٍ لم يُولد بعد...
لتعلم أن الأمر كله لله يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ.

إلى من ناداه ليله، فتهاوى جسده على فراش الوهن، ونسي أن للفجر ساجدين...
لتتذكر أن للصادقين علامة: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ.

وإلى الباحث عن كنزٍ لا يفنى، ونعيمٍ لا يُوصف، وأجرٍ لا يُحصى...
هذه السورة تهمس لك بسرٍّ من أسرار الغيب: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ.

إليك يا من أيقنتَ أن العزة في العبودية لا في اتباع الهوى...
وأن الحرية في السجود للواحد، لا في التيه وراء الجميع...
إليك، هذه سورة السجدة، قبسٌ من نور، وسلاحٌ لليقين، وعربون محبةٍ من رب العالمين.

المؤلف احمد عبد الرزاق مربوش العامري

بسم الله الرحمن الرحيم
مذكرة تعريفية بكتاب "المفاهيم القرآنية من سورة السجدة"

.1جوهر الكتاب وفكرته الرئيسية

هذا الكتاب ليس مجرد تفسير تقليدي لسورة السجدة، بل هو رحلة تدبّرية تحليلية تستخلص "المفاهيم القرآنية الكبرى" من السورة وتقدمها كـ "منظومة فكرية وإيمانية متكاملة" لمواجهة تحديات العصر .الفكرة المحورية تدور حول أن سورة السجدة تُقدّم "دستوراً وجودياً وحضارياً" للإنسان المعاصر، يقوم على ثلاث ركائز: مرجعية الوحي) اليقين بالمصدر(، وتوحيد الربوبية) التدبير الإلهي(، وكرامة الإنسان) التكوين والنفخة الإلهية .(يهدف الكتاب إلى بناء هوية المسلم اليقينية التي تعصمه من "الذوبان الثقافي" و"التذبذب الفكري" في زمن طغيان الماديات.

.2أغراض الكتاب وأهداف المؤلف

يسعى المؤلف من خلال هذا العمل إلى تحقيق أهداف استراتيجية وتربوية واضحة:

· ترسيخ اليقين: إثبات أن القرآن الكريم هو "تنزيل من رب العالمين"، لا ريب فيه، ليكون مرجعية مطلقة تولّد الثقة والطمأنينة.
· الكشف عن مركزية العقيدة: إبراز كيف تؤسس آيات السورة لعبودية خالصة لله، تمنح المؤمن عزة وتحرره من الخوف من الفقر أو البشر أو المستقبل.
· تقديم القرآن كمنهج عملي: تحويل الآيات إلى برنامج حياة، ونقل القارئ من مرحلة "التلقي السلبي" إلى مرحلة "العمل النشط") الإنذار، الإنفاق، قيام الليل.(
· إبراز الترابط القرآني: ربط خواتيم سورة لقمان بفواتح سورة السجدة لإثبات وحدة الخطاب القرآني وتكامله في بناء النفس المؤمنة.
· توجيه البوصلة الحضارية: ربط مفاهيم الإيمان) كالصبر واليقين (بشروط التمكين والقيادة) الإمامة في الدين(، لإحياء دور الأمة في الشهادة على الناس.

.3أسلوب الكاتب وطريقة العرض ومنهجه البياني

يتميز أسلوب الكاتب بأنه وعظي تفاعلي غزير بالعاطفة، يمزج بين العقل والوجدان ببراعة .يخاطب القارئ مباشرة بعبارات مثل "أيها المتدبر"، و"يا عبد الله"، مما يخلق تجربة روحانية خاصة .منهجه البياني يقوم على:

· التحليل البلاغي الدقيق: الغوص في دلالات الكلمة القرآنية الواحدة) مثل الفرق بين "نزّل و "تنزيل"، أو دلالة فعل "تتجافى" بدلا ً من "يتركون".(
· التصوير الحي) كاميرا المشهد(: تحويل المعاني المجردة إلى مشاهد حية تتحرك في خيال القارئ)مثل مشهد المجرمين ناكسي الرؤوس، أو مشهد سَوْق الماء للأرض الجرز.(
· التطبيق المباشر: يُصاحب كل مقطع تفسيري فقرة بعنوان "الدروس والتطبيقات العملية"، وأمثلة واقعية من حياة الصحابة والمعاصرين، مما يُسقط المفاهيم النظرية على أرض الواقع.

.4ما يميز هذا الكتاب عن بقية التفاسير

بعيداً عن التفسير الجزئي للآيات، يتميز هذا العمل بعدة سمات فريدة:

· المنهج المفاهيمي: لا يكتفي بشرح المعنى اللغوي، بل يستخلص "المفهوم القرآني") مفهوم التحرر بـ الربوبية، مفهوم قرة العين الخفية (ويجعله محوراً للتحليل.
· البعد التركيبي: يربط بين مقاطع السورة بشكل سببي ومنطقي؛ فمثلا ً يبيّن كيف أن إثبات التدبير الإلهي هو نتيجة طبيعية لليقين بالتنزيل، وكيف أن صلاح القيادة مرهون بالصبر واليقين.
· النفس التربوي والحضاري المتكامل: لا يقف عند حدود تزكية النفس، بل يمتد ليبني مفاهيم لإدارة المجتمع، وتوجيه التنمية، وبناء الحضارة، مستنداً إلى نصوص السورة.
· التفاعل مع الواقع: يعالج الكتاب إشكاليات عصرية بشكل مباشر، كالخوف من الرزق) الربوبية(، و القلق من المستقبل) التدبير(، والطعن في مصادر الوحي) الإفتاء(، ويصف دواءها من خلال آيات السورة.

.5هيكل المفاهيم

يتم بناء الكتاب عبر رحلة مفاهيمية متصاعدة، تبدأ من المصدر وتنتهي بالجزاء:

.1مفهوم اليقين بالمصدر:) التنزيل (ودوره في مواجهة الريب والشك.
.2مفهوم التحرر بالربوبية: التوحيد كحائط صد ضد استعباد المخلوقين.
.3مفهوم العبودية والكرامة: بين أصل الإنسان الطيني ونفخة الروح الإلهية.
.4مفهوم التدبير الإلهي: علاقة استواء الله على العرش بتفويض الأمر وترك القلق.
.5مفهوم البعث والجزاء: العدالة الإلهية وخطورة الغفلة عن لقاء الله.
.6مفهوم الإمامة والقيادة: شروط التمكين) الصبر واليقين (وانتقال المهمة الحضارية.

.6المنهج المعتمد

يعتمد الكتاب منهجاً تدبرياً استنباطياً متعدد الأبعاد، يجمع بين:

· أصول التفسير المأثور) بالاستدلال بآيات أخرى وأحاديث نبوية.(
· التحليل البياني واللغوي) الاستفادة من لطائف اللغة وأسرار البلاغة.(
· المقاربة النفسية والتربوية) ربط المعاني بحياة القارئ اليومية وأزماته النفسية كالقلق والكبر.(
· التقعيد الحضاري) استخراج قوانين النهوض والهلاك من خلال آيات الأمم السابقة.(

.7الجمهور المستهدف

الكتاب موجّه إلى شريحة واسعة من القراء، وليس للمتخصصين فقط:

· الدعاة والمربون، ليجدوا فيه منهجاً متكاملا ً لبناء الإنسان.
· الشباب الباحث عن اليقين في زمن الشبهات والشكوك.
· الأفراد الذين يعانون من القلق والخوف من المستقبل، حيث يقدم لهم "علاجاً قرآنياً" نفسياً.
· كل من يرغب في الانتقال بالقرآن من كونه نصاً للتعبد إلى كونه دستوراً للحياة والنهضة.

.8لماذا يجب أن تقرأ هذا الكتاب؟

لأنك إن شعرت أن الإيمان أصبح مجرد طقوس، فهذا الكتاب سيعيد إليك روح التدبّر ويقظة القلب . إن كنت تبحث عن الثبات في زمن الفتن، فستجد في صفحاته درعاً فكرياً ونفسياً .وإن كنت تتوق إلى أن تعيش مع آيات القرآن وكأنها تتنزل عليك الآن، فإن أسلوب الكاتب الحي وتطبيقاته العملية ستحقق لك هذه الغاية.

.9ثمرات قراءة هذا الكتاب

بعد قراءة هذا الكتاب، سيحصد القارئ - بإذن الله - ثمرات عظيمة:

· يقيناً راسخاً بأن القرآن من عند الله، لا ريب فيه.
· تحرراً نفسياً من الخوف من المخلوقين ومن القلق على الرزق والمستقبل.
· فهماً عملياً لمعاني العبادة، حيث تتحول الصلاة والإنفاق وقيام الليل إلى أدوات لبناء الذات وصناعة الحضارة.
· تغييراً في النظرة إلى التاريخ والسنن الإلهية، واكتساب بوصلة للتعامل مع تقلبات الحياة وابتلاءاتها.
· استعداداً حقيقياً للقاء الله، قائماً على التوازن بين الخوف والرجاء، وبين العمل للدنيا والآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة تعريفية بسورة السجدة

.1عدد آيات السورة

عدد آيات سورة السجدة ثلاثون آية (30) في جميع المصاحف.

.2مكان نزولها

سورة السجدة مكية بالإجماع، نزلت في مكة المكرمة، باستثناء قول ضعيف في ثلاث آيات منها، و الصحيح أنها كلها مكية.

.3ترتيب السورة

· من حيث ترتيب المصحف الشريف: هي السورة رقم.(32)
· من حيث ترتيب النزول: هي السورة رقم(75) ، حيث نزلت بعد سورة "المؤمنون" وقبل سورة "الطور".

.4الأجواء التي نزلت فيها السورة

نزلت السورة في المرحلة المكية المتوسطة، في فترة اشتداد الصراع بين النبي ﷺ والمشركين .كانت الأجواء مليئة بـ:

· تحديات فكرية: تكذيب المشركين للقرآن واتهامهم النبي ﷺ بأنه "افتراه") الآية.(3
· إنكار البعث: سخرية المشركين من فكرة البعث بعد الموت، كما حكت الآية:) أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ] (آية:.[10
· حاجة المؤمنين للتثبيت: كان النبي ﷺ وأصحابه بحاجة إلى ما يثبت قلوبهم ويقوي يقينهم في مواجهة الطغيان والاستهزاء.

.5هدف السورة وأغراضها

بحسب تحليل الكتاب، تهدف السورة إلى:

· ترسيخ اليقين بالوحي: إثبات أن القرآن "تنزيل من رب العالمين" وليس افتراءً.
· تثبيت أركان العقيدة: الربوبية، الوحي، البعث والجزاء.
· بناء الهوية الإيمانية: تقديم "بطاقة تعريفية" للمنهج القرآني الذي يجيب على الأسئلة الوجودية الكبرى:) من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟.(
· التمهيد للتمكين: بيان أن طريق القيادة في الدين) الإمامة (يمر عبر الصبر واليقين.

.6علاقة السورة بما قبلها) سورة لقمان(

يركز الكتاب على أن العلاقة بين السورتين استراتيجية ومحكمة:

· سورة لقمان انتهت ببيان المفاتيح الخمس للغيب التي استأثر الله بعلمها) آخر آية في لقمان(، مؤكدة أن العلم المطلق لله) الخبير.(
· سورة السجدة تبدأ مباشرة بالتطبيق العملي لهذا العلم الإلهي، وهو الكتاب) القرآن (الذي أنزله الله بعلمه) تنزيل الكتاب لا ريب فيه.(
· وكأن سورة السجدة تقول: إن الله الذي يعلم الغيب هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، ليكون هداية للناس .الرابط هو: من "عِلم الغيب المطلق" إلى "الكتاب الهادي العملي".

.7تناسب افتتاحية السورة مع خاتمتها

التناسب بديع ويُظهر وحدة السورة الموضوعية:

· الافتتاحية) الآيات1 -(2:) الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .(إثبات للحق.

· الخاتمة) الآيات29 -(30:) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ...فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ .(وعد بانتصار الحق.
· وجه التناسب: السورة بدأت بتقرير أن هذا الكتاب حق من الله، وخُتمت بالأمر بالإعراض عن المكذبين وانتظار "يوم الفتح" الذي سيُظهر فيه الله صدق هذا الكتاب وهزيمة المبطلين .وكأنها تقول: إذا كنتَ موقناً بأنه "تنزيل من رب العالمين"، فاصبر وانتظر، فسيأتي يوم يثبت فيه الله صدقه.

.8خصائص السورة

· اسمها "السجدة": سُميت بذلك لكونها السورة الوحيدة التي ورد فيها ذكر سجود المؤمنين استجابة فورية لآيات الله:) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ] (آية: .[15 فالاسم مشتق من أبرز مشاهد السورة.
· آية التهجد والحياة المتوازنة: تنفرد بوصف دقيق للمؤمنين الصادقين الذين) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (وربط ذلك بالدعاء والإنفاق.
· آية الجزاء الخفي: فيها الآية التي أخبر النبي ﷺ أنها من أعظم ما أعدّه الله لعباده الصالحين:) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ] (آية:.[17

.9فضائل السورة

· قراءتها ليلة الجمعة وفجرها: صح عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في فجر الجمعة بسورتي "ألم تنزيل" السجدة، و"هل أتى على الإنسان") رواه البخاري ومسلم .(وهذا يدل على عظيم شأنها.
· التأكيد على اليقين: تمنح قارئها جرعة إيمانية عظيمة في باب اليقين بالوحي والبعث.
· تربية القلب على السجود: تزرع في النفس روح الخضوع والاستجابة الفورية لأمر الله.

.10ما انفردت به هذه السورة

· الجمع بين سجدتي العبودية: بينما ورد سجود الملائكة في مواضع أخرى، تنفرد السجدة بوصف "خَرُّوا سُجَّدًا" للمؤمنين، وهو فعل يدل على المفاجأة وسرعة الاستجابة والمبادرة دون تردد.
· صيغة "تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ": تعبير فريد في القرآن يصور نفور جسد المؤمن من الراحة والدعة ليلاً، شوقاً لمناجاة الله، وهو أبلغ من أن يقال "يقومون من مضاجعهم".

.11أهم القضايا التي تناقشها السورة

كما استعرض الكتاب، تناقش السورة قضايا محورية:

· قضية مصدرية القرآن: ودحض شبهة الافتراء.
· قضية الربوبية والتدبير: إثبات أن الأمر كله لله.
· قضية أصل الإنسان وغايته: من الطين والماء المهين إلى نفخة الروح.
· قضية البعث والمعاد: بالأدلة العقلية والحسية.
· قضية الإمامة والقيادة: وشروطها المتمثلة في الصبر واليقين.
· قضية الموت: والتذكير بحتميته كبوابة للقاء الله.

.12أهم المواضيع التي تتحدث عنها السورة

يمكن تقسيم موضوعات السورة إلى ثلاثة مقاطع رئيسية:

.1المقطع الأول) آيات1 -(14: تقرير أصول العقيدة:) الوحي، الخلق والتدبير، البعث والنشور.(
.2المقطع الثاني) آيات15 -(22: المقارنة بين صفات المؤمنين الصادقين وجزائهم الخفي، ومصير الفاسقين المعرضين.
.3المقطع الثالث) آيات23 -(30: الحديث عن قصة موسى كدليل على وحدة الرسالات، وشروط التمكين، وختم السورة بأمر النبي بالإعراض عن المشركين وانتظار وعد الله.

.13مقاصد السورة

استناداً إلى تحليل الكتاب، يمكن إجمال المقاصد الكبرى لسورة السجدة في:

· المقصد الأول: إثبات أن القرآن حق وتنزيل من الله، ليكون مرجعية لا ريب فيها.

· المقصد الثاني: بناء اليقين بالله) رباً مالكاً مدبراً (وتحرير الإنسان من عبادة ما سواه.
· المقصد الثالث: تذكير الإنسان بحقيقة أصله) طين/ماء (وكرامته) نفخة الروح(، وربطه بالبعث و الجزاء.
· المقصد الرابع: تأهيل أمة المؤمنين لحمل أمانة القيادة) الإمامة (عبر الصبر واليقين.
· المقصد الخامس: دعوة الأمة إلى التوازن بين خوف الرجاء) عبادة الليل والنهار معاً (وبين العلم و العمل.

المقدمه
قبل ان نستعرض تفسير آيات هذه السورة سوف نقف أمام الرابط بين خواتيم سورة "لقمان" وفواتح سورة "السجدة"، لبيان كيف تمهد الآيات الأولى من السجدة الطريق للنظام التشريعي والوجودي الذي تعرضه السورة، مع التركيز على مفهوم "الإذعان" كحائط صد ضد الذوبان الثقافي .كما يتضح من الا تى
*
أولا ً: الرابط الاستراتيجي بين "الخبير" و"التنزيل"
إذا كانت سورة لقمان قد ختمت ببيان علم الله المطلق بمفاتيح الغيب) العليم الخبير(، فإن سورة السجدة تبدأ بالتطبيق العملي لهذا العلم من خلال** "الكتاب".**
** * المعنى المحوري: **المنهج الذي بين أيدينا ليس اجتهاداً بشرياً، بل هو صادر عمن يعلم أسرار الروح، وما في الأرحام، وما تكسبه النفس غداً .هذا الربط يولد لدى المسلم ثقة مطلقة تجعل استمساكه بهويته نابعاً من يقين معرفي.
###** ثانياً: تحليل الآيات الأولى كتمهيد هيكلي) الآيات1 -**(9
تقوم الآيات الأولى من سورة السجدة بوضع "القواعد التأسيسية" التي يقوم عليها كامل بناء السورة، وذلك من خلال ثلاث ركائز:
.1**مرجعية المصدر) الموثوقية(:**
تنزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ
** * الدلالة: **نفي الريب هو نفي للتذبذب الثقافي .البدء بوصف "رب العالمين" يعطي الكتاب صفة الشمولية لجميع الخلق، ليكون منهج هداية لكل زمان ومكان، كما تفضلت بذكر ذلك.
.2**إثبات الألوهية عبر التدبير) القدرة(:**
اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ...يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ
** * الدلالة: **قبل أن تطلب السورة من الإنسان السجود) الخضوع(، تذكره بأن الله هو "المدبر" .فمن يدبر أمر الكون الفسيح هو الأقدر على تدبير حياة الإنسان وتوجيه فكره.
.3**التكوين الإنساني) الامتنان(:**
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ
** * الدلالة: **تذكير الإنسان بأصله يكسر كبرياءه .هذه الآية تمهد لمشهد السجود اللاحق في السورة، فالمخلوق من طين ومنفوخ فيه من روح الله لا يجد كرامته إلا في السجود لمن خلقه وسواه.
###** ثالثاً: الخصائص الثقافية المستنبطة من المقدمة**
تؤسس هذه الافتتاحية لنظام فكري يحمي الإنسان من الضياع في التيارات المادية:
** * التفكير الصحيح: **يبدأ من التسليم بأن العقل له حدود) الغيب(، وأن الوحي هو المكمل للقصور البشري.
** * العيش الصحيح: **يقوم على مبدأ "الاعتزاز بالعبودية"، حيث يرى المسلم في تنفيذ أوامر الله تميزاً واستقلالا ً لا ذوباناً وتقليداً.
** * عمارة الأرض: **الآيات التي تتحدث عن خلق السماوات والأرض تحفز الإنسان على فهم قوانين الكون) العماره (دون أن ينسى المالك والمدبر.
###** رابعاً: تعتبر هذه الآيات التسع الأولى بمثابة** "البطاقة التعريفية" **لمنهج السجدة؛ فهي:
.1 تجيب على سؤال** المصدر) **من أين جاء المنهج؟.(
.2 تجيب على سؤال** الكون) **من الذي يدير هذا الوجود؟.(
.3 تجيب على سؤال** الذات) **من أنا وما واجبي تجاه الخالق
هذه الاسئله التي تجيب عنها السوره وردت بعد تلك الخاتمه التى انتهت بها سورة لقمان والتي بينت ان العقل البشري محدود في علمه فهو بحاجه الى العلم الرباني الذي تستكمل به قوه العقل فمسائل الغيب مثل اسماء الله وصفاته مثل الجنه والنار مثل ما بعد الموت مثل الحشر مثل الملائكه كل مسائل الغيب لا يمكن للعقل البشري ان يعرفها الا عن طريق الوحي لان الوحي والمصدر الموثوق بالحديث عن الله فلا يحق لغير الانبياء الحديث عن ذلك ولهذا نجد ان السوره ابتدات بهذه الحروف المقطعة (الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ...الخ
فهذا الكتاب هو الذي يدلك ويجيبك على كل تساؤلاتك عن امور الغيب فهو المصدر الموثوق في الحديث عن امور الغيب لان امور الغيب لا يعلمها الا الله وهو سبحانه وتعالى قد اخبرنا عن ذلك في القران الكريم والامر يتطلب الايمان باليقين بهذه الامور الايمان بان القران لا ريب فيه وقد ضرب لنا الله امثله في انفسنا وفي الكون لاثبات ما يدعونا للايمان به وهذا لان لله افعال مشهوده لا يختلف فيها الناس مثل خلق الانسان وبناء الكون وخلق السماوات والارض امور الخلق والتدبير بينما هناك امور نظريه يتفاوت الناس فيها وهي الامور الغيبيه ولذلك فان الله يستشهد بافعاله المشهوده لاثبات وتاكيد افعاله النظريه التي يدعون اليها في القران الكريم والغرض من هذا هوان يكون من هذا الا نسان الاذعان والسجود لامر الله واياته المسموعه والمرئيه واوامره ونواهيه فالانسان مامور ان يستقبل اوامر الله بالخضوع والاذعان مامور بان يكون عبدا لله وان يعتز بهذه العبوديه فالسوره هي

سوره السجده وقد وردت بهذا الاعلان بعد ان اختتمت سوره لقمان بذكر الامور الغيبيه الخمسه لتغرس مبدا الربوبيه والالوهيه في النفس ذلك ان خصائص العقديه من اهم ما تتميز به ثقافه الاسلا م فهي ترتبط بالايمان بالا اله الا الله وان محمدا هو عبده ورسوله وان الله تعالى وحده هوالخالق لهذا الكون بما فيه من انس وجن وملائكه واحياء اخرى وسائر المخلوقات وانه كتب الموت على كل ما سواه وانه بعد الموت سيبعث الناس ليحاسبهم فيجزي المحسن باحسانه ويجزى المسيء بالنار والا يمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى والا شيء يحدث في الكون الا بامره وارادته ولهذا فان اهم ع ناصر التاثير العقدي في التربيه الاسلاميه والثقافه الاسلاميه هي التوحيد والربانيه اياك نعبد واياك ن ستعين فالمطلوب من النفس البشريه هي الانكسار والخضوع لله عز وجل ان تتحرر من كل ما سوى الله ولهذا سميت السوره بالسجده بعد ان ورد في السوره السابقه بيان ان الله سبحانه وتعالى عنده علم الساعه فالانسان لا يعلم متى تكون القيامه والله سبحانه وتعالى عنده علم الغيث الذي يعيش الناس وهم في كل وقت بحاجه اليه في كل زمان فالماء اساس الحياه ويعلم بمستقبل النفس ماذا ت كسب غدا ويعلم ما في الارحام ويعلم اين تموت النفس فهذه الامور كلها مقومات الحياه فالله سبحانه وتعالى يامرك ان تكون عبدا لله فانت في قبضته ومستقبلك في يده سبحانه وتعالى وسوف تعود اليه ليحاسبك ولهذا فان الله سبحانه وتعالى عندما طلب منك ان تعبده وتسجد له قد عرفك لمن تسجد ولمن تخضع حتى تعرف لمن تنحني ولمن تسجد حتى تعرف بالطريقه الموصل الى الله ف الوصول الى خاصيه عباده الله ان تكون من درجه العبيد لله هي اعلى مراتب الشرف فالعز بطاعته والخضوع له والشرف بعبادته فالسجود يعنى التذلل والخضوع لله عز وجل بحب ورغبه بان تكون حياتك كلها في اتباع مرضاه الله تعتز ان تكون عبدا لله تتلذذ بهذه العبوديه

الخلاصه : **إن فواتح سورة السجدة ليست مجرد إخبار عن بدء السورة، بل هي "إعلان دستوري" يرسخ التوحيد والعبودية كمنطلق وحيد للنجاح في الدنيا والآخرة، وهي التطبيق العملي لمعاني الحكمة التي انتهت بها سورة لقمان

المبحث الأول

أيها المتدبر، يا من أقبلت على كلام ربك بقلب يبحث عن النور، وعقل يلتمس اليقين، وروح تتوق إلى التحرر ...تعالَ نعيش معًا في رحاب آيتين من سورة السجدة، ليستا مجرد حروف تُتلى، بل هما مفتاح حياة، ودستور وجود، ورسالة مباشرة من السماء إلى أعماق كيانك.

المقدمة: حيث يلتقي لقمان بالسجدة ..من الحكمة إلى اليقين

قبل أن نلج إلى ظلال "الم * تنزيل"، تأمل كيف انتهت سورة لقمان .لقد خُتمت تلك السورة بذكر مفاتح الغيب الخمسة التي استأثر الله بعلمها: علم الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، وماذا تكسب نفس غدًا، وأي أرض تموت فيها .ثم جاء التعقيب الإلهي:} إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .{هذا الختام ليس نهاية كلام، بل هو تمهيد ضروري .لماذا؟

لأن الإنسان حين يعلم أن مستقبله غيب، وأن رزقه غيب، وأن أجله غيب؛ يصاب بالقلق والتوجس . فمن أين له بالأمان؟ من أين له بالمنهج الذي يسير عليه في ظلمات هذا الغيب؟

هنا، وكأن السورة التالية تجيب على تساؤل الروح الحائر: أتريد الطمأنينة في خضم الغيب؟ أتريد البوصلة التي لا تخطئ؟ ها هو الجواب:} الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .{وكأن الخطاب يقول لك: "لا تخف على مستقبلك، فعالمه بيد رب العالمين، وهذا كتابه الذي لا ريب فيه يهديك إليه".

الأمر الأول:) الم * تنزيلُ الكِتَابِ (- حين تتعاظم الحروف في قلبك

قف لحظة .ما هذه الحروف؟ "ألف .لام .ميم".

هل تستطيع أيها العقل البشري أن تصنع مثل هذا؟ إنها مجرد حروف هجاء، نفس الحروف التي تتحدث بها في سوقك وبيتك، ولكن لما رتبها الله بهذا النظم المعجز خرجت "تنزيل الكتاب" .هذا هو التحدي الأول لوجدانك: إن كنت في ريب من أن هذا الكلام كلام بشر، فاعلم أن مادته من عندكم، ومع ذلك عجزتم عن الإتيان بمثله.

اللمسة البيانية والبلاغية:

· بناء الجملة الاسمية: قال:} تنزيلُ الكِتَابِ {ولم يقل: "نزل الكتاب" .الفعل "نزل" يدل على حدث وقع وانتهى، أما المصدر "تنزيل" فيدل على الثبات والدوام والاستمرارية .إنه ليس مجرد خبر نزل مرة واحدة، بل هو "تنزيل" دائم التدفق بالهداية، متجدد العطاء في كل زمان ومكان، وكأن الله ما زال يخاطبك به الآن.

· حذف المبتدأ) هذا(: التقدير: "هذا تنزيل الكتاب" .حذف المبتدأ جعل الآية تبدأ مباشرة بحدث التنزيل ، ليشغل ذهنك مباشرة بأعظم خبر: أن هذا الكتاب نازل من فوق، من ملكوت السموات، إلى قاع أرضك المليئة بالهموم.

الرسالة التربوية والنفسية:
أتدري لماذا يبدأ التنزيل بهذه الحروف؟ إنها لشد انتباهك، لتسكت الضجيج الداخلي في نفسك .في زمن أصبحت فيه الكتب البشرية تملأ الأرفف، وتضج به البرامج والتغريدات، يأتي "الم" صارخًا في أذن الغافل: أنصت! فهذا ليس كلام فلان ولا علان، هذا كلام خالق الأكوان.

أهمية التعظيم وثمرته في حياتك) وربطها بخاتمة لقمان(:
بعد أن استشعرت في سورة لقمان أن} اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ {بما في الأرحام وما في الصدور، يأتي التعظيم هنا بثمرة عملية:

· إذا عظمت المصدر) لأنه من عند العليم الخبير(، اطمأننت .ثمرة التعظيم هي السكون النفسي .فأنت أيها الإنسان، عندما تواجه مشكلة عائلية أو أزمة مالية، وتلجأ إلى القرآن معظمًا له، سترى أن حلوله لا تتعارض مع مصلحتك الحقيقية، لأن الذي شرعها هو العليم بحقيقة نفسك والخبير بعواقب الأمور.
· دور التعظيم: أن يجعلك تقف عند حدود الله بلا تردد .تعظيم القرآن يعني أن تقول لقلبك: "اسكت، فإن سيدنا قد تكلم" .إنه يقتلع التردد .كثير من الناس يتردد في الصلاة في وقتها، أو في إلقاء السلا م، أو في غض البصر، لماذا؟ لأن تعظيم الأمر لم يصل إلى قرارة النفس .لو استحضرت أن هذا الأمر "تنزيل" من عند من بيده مقاليد الغيب، لما توانيت.

الأمر الثاني:) لَا رَيْبَ فِيهِ (- أساس الإيمان المتين وعكاز الإرادة

}لَا رَيْبَ فِيهِ{: ثلاثة أحرف، لكنها تمحو عنك جبالًا من الشكوك والوساوس.

اللمسة البيانية والبلاغية:

· النفي المطلق: "لا" هنا نافية للجنس، تعني نفي كل أنواع الشك، صغيره وكبيره، قديمه وجديده، شك العلماء وشك العوام .ليس فيه موضع لريبة واحدة.
· تقديم الجار والمجرور "فيه": للتخصيص والتأكيد، أي: لا ريب كائن فيه البتة .إنها شهادة إلهية مطلقة، وليست مجرد وصف بشري.

الرسائل العقلية والنفسية: كيف يبني هذا اليقين إرادتك؟
هنا مربط الفرس في حياتك العملية .أنت تعيش عصرًا مليئًا بـ "النسبية" ، حيث كل شيء قابل للنقاش والتشكيك.

.1الثقة بالمصدر = ثبات الإيمان:
تخيل أنك في صحراء موحشة، وجاءك رجلان: أحدهما يقول إنه سمع من أحدهم أن هناك ماء في اتجاه الشرق، والآخر يقول لك إنه صاحب خرائط دقيقة وصور أقمار صناعية وأن هناك ماء في الغرب .أنى لك أن تخطو خطوة وأنت مرتاب في المصدر؟ أما إن أيقنت أن المصدر هو صانع الصحراء نفسه، وخالق الماء، فستهرول بكل قوتك.
} لَا رَيْبَ فِيهِ {تعني: لا تتردد في تطبيق أمره، ولو خالف هواك، ولو تعارض مع مصلحتك الآنية.
مثال واقعي: شاب في مقابلة عمل، يُطلب منه الكذب أو التزوير ليفوز بالوظيفة .النفس تقول: هذه فرصة العمر! لكن يقينه بأن} لَا رَيْبَ فِيهِ {في قوله تعالى:} وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ {أو} إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ {، هذا اليقين هو الذي يعطيه الإرادة الفولاذية ليرفض الحرام، ثقة بأن الرزق بيد الله لا بيد مدير التوظيف.
.2إكمال الإيمان بالغيب) ربطًا بمفاتح الغيب في لقمان(:
العقل البشري محدود، لا يستطيع أن يخبرك ماذا سيحدث بعد ساعة، فكيف يخبرك بماذا يحدث بعد الموت؟ ولأن القرآن} لَا رَيْبَ فِيهِ {، فإنه يمد عقلك بما يعجز عنه:
· يخبرك عن الجنة والنار يقينًا، فيصبح غدك غير مجهول بل محدد المعالم، إما إلى جنة أو نار، وهذا يدفعك للعمل.
· يخبرك عن أسماء الله وصفاته، فتعرف كيف تخاطب من بيده مقاليد الأمور.
الفائدة العملية: أنت حين تؤمن بالغيب عبر هذا اليقين، يقل قلقك على المستقبل .لماذا؟ لأنك تعلم أن خالق الغيب قد أخبرك بالمنهج، وما عليك إلا السير عليه، والنتائج بيده.
الأمر الثالث:) مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (- دستور التحرير من كل خوف وعبودية

هذا هو الإعصار الذي يقلب موازين النفس ويهدم عروش الخوف من غير الله.

اللمسة البيانية والبلاغية:

· اسم "الرب": اختيار اسم "الرب" دون غيره) مثل: الله، الرحمن (له دلالة عظيمة .الرب هو المالك، المربي، المدبر، المصلح ."تنزيل من رب العالمين" يعني أن هذا المنهج ليس مجرد قوانين جافة، بل هو تربية ورعاية وإصلاح من سيد الكون لعباده.
· إضافة "العالمين": لتشمل كل المخلوقات، إنسها وجنها، ملائكتها وحيواناتها، أفلاكها وذراتها .هذا التوسع في الملك يحررك من ضيق الأفق البشري .من خاف الناسَ ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ومن أيقن أن المتكلم هو رب العالمين، انشرح صدره، لأنه في حمى من يملك العالمين.

الرسائل النفسية والتربوية: كيف تحرر نفسك بهذه الآية؟
اسمع جيدًا، هنا يكمن سر عزة المسلم.
أنت تعيش في عالم يريد أن يستعبدك: استعبدتك الوظيفة تخاف بطش مديرك، استعبدتك المناصب تخاف فقدان كرسيك، استعبدك المال تخاف الفقر، استعبدك البشر تخاف كلامهم ونظراتهم.

}مِن رَبِّ العَالَمِينَ {تقول لك:

· اخرج من ضيق الخلق إلى سعة الخالق.
مثال واقعي: امرأة تخاف من سحر أو حسد، وتلجأ إلى الدجالين والمشعوذين ليكشفوا لها الغيب ويحموها .هذه المرأة وقعت في شرك عبودية الأسباب، لأنها خافت مخلوقًا ولم توقن أن الضر والنفع بيد رب العالمين .لو استقر في قلبها أن كل من في الكون مخلوقات لله، وأن الساحر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا بإذن الله، لتحررت من الخوف منه ولجأت إلى الله وحده بالقرآن والرقية الشرعية.
· تحرير من سلطان البشر:
يقول رجل لآخر: "اسجد لي" .هنا الإنسان العاقل يرفض، لأنه يعلم أن السجود لـ} رَبِّ العَالَمِينَ .{ ولكن، ألا نسجد نحن لغير الله بأفعالنا؟
· السجود لصاحب النفوذ: حين تغضب لأن فلانًا "المتنفذ" غضب منك ولا تبالي إن كان الله غضبان.
· السجود للموضة: حين تلبس ما لا يرضي الله خوفًا من سخريتهم.
اليقين بأن الكتاب من} رَبِّ العَالَمِينَ {يجعلك تقول في وجه كل هذه الضغوط: "إنه منزل من ربي ، لا من ربهم، فعلامَ أخافهم وهم عبيده؟!"

الرسالة السياسية والاجتماعية) مبدأ العدالة والمساواة(:
عقيدة التوحيد التي تغرسها} رَبِّ العَالَمِينَ {هي سد منيع ضد الاستبداد .لا قداسة لبشر .فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله".
هذه الآية تؤسس لمبدأ المساواة والعدالة، لأن الخضوع المطلق لله وحده يحرر الناس من الخضوع لبعضهم البعض ظلمًا وعدوانًا.

تطبيقات قلبية ورسائل حياتية: كيف تخرج من الآية بقلب ساجد؟

بعد هذا البيان، ماذا بقي لك؟ أن تجعل لهذه الآيات أثرًا عمليًا في حياتك.

الموضوع الأول: استحضار العبودية في كل شأن
كيف تستحضر معاني العبودية وأنت في عملك، في قيادة سيارتك، في تعاملك مع زوجتك وأولادك؟

· عند الأمر: قل في نفسك: "هذا أمر رب العالمين لي .هو أعلم بمصلحتي مني" .هذا الشعور يذيب الكبر في القلب .كثير من الناس يتركون أوامر واضحة استكبارًا) مثل إلقاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف(، فيقولون: "هذه ليست من شيمي، الناس تفهمني غلط!" .هنا يأتي} تنزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ {ليكسر هذا الكبر ويقول لك: تواضع لخالقك، فهو أرحم بك من نفسك.

الموضوع الثاني: مفاهيم حياتية تترجم الآية إلى سلوك

.1الرحمة:
} رَبِّ العَالَمِينَ {تعني أن الله يربي كل الخلق ويرحمهم .حتى الكافر يمده الله بالطعام والشراب و

الصحة .هذه النظرة الربانية تجعلك ترحم الخلق لأنهم خلق ربك.
· مثال: عندما ترى مشردًا غير مسلم، أو حيوانًا يتألم .لا تقل: "هذا ليس مني" أو "هذا كلب نجس"، بل استحضر أن الله هو ربه وهو رب العالمين، فارحمه من أجل ربوبية الله له .بهذا تتحول إلى إنسان رحيم بالناس جميعًا، لا فظًا غليظًا كالذين زعموا أن رحمة الله قاصرة على طائفة معينة.
.2الثقة المطلقة في التدبير:
إذا أيقنت أن الكتاب من} رَبِّ العَالَمِينَ {، فلماذا تخاف من تطبيق شرعه؟ لماذا يخاف الشاب من الزواج المبكر ظنًا أن الرزق لن يكفي؟} رَبِّ العَالَمِينَ {خلق العالمين بأرزاقهم قبل أن يخلقهم .يقينك بأنه الرب يجعلك تقدم على مراضيه دون تردد، لأن من تكفل بربوبيتك تكفل بتدبير أمرك.
.3التطبيق العملي عند قراءة القرآن:
· الخطوة الأولى: حين تمسك المصحف، تذكر "الم" .اسكت عقلك عن التفكير في الدنيا .استشعر أن هذه الحروف المتقطعة هي طرق على باب قلبك.
· الخطوة الثانية: اقرأ "تنزيل الكتاب" وتخيل شعاع نور ينزل من السماء إلى صدرك ليبدد ظلمات حيرتك .كما تنتظر رسالة من حبيب لتطمئن، فهذه رسالة من أرحم الراحمين.
· الخطوة الثالثة: اقرأ "لا ريب فيه" وكأنك ترد على كل شيطان يوسوس لك بالتقصير، بترك الصلا ة، بفعل المعصية، وتقول له: "اسكت، فإنه لا ريب فيه، وما دام لا ريب فيه فأنا ماضٍ على الطاعة".
· الخطوة الرابعة: اختم بـ "من رب العالمين" وانظر إلى مخاوفك: الخوف من المرض، الخوف من الفقد، الخوف من كلام الناس ...واطرحها أرضًا وأنت تقول: "كل هؤلاء عبيد رب العالمين، وهو ربي".

خاتمة: كيف نخرج من رحاب الآيتين بقلب خاضع؟

يا عبد الله، يا من تبحث عن الكرامة والحرية، لا تجدها في المال ولا في الجاه، بل تجدها في قوله: }الم * تنزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ العَالَمِينَ.{
اخرج من ظلمات التردد إلى نور اليقين.
اخرج من عبودية الخلق إلى حرية عبودية الخالق.
اخرج من قلق الغيب إلى سكون اليقين بأن هذا الكتاب من عند علام الغيوب.
اجعل هذه الآية تاجًا على رأسك، تذكر بها كلما حزبك أمر، وكلما اشتدت عليك رياح الفتن، وقل بملء فيك:
رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا وحكمًا.

هكذا تسجد الروح لله، لا بجبهة على أرض فحسب، بل بقلب سجدت فيه كل الأهواء والمخاوف لعظمة} رَبِّ العَالَمِينَ

المبحث الثاني

أيها المتدبر الكريم، بعد أن رسخت الآيتان الأولى والثانية في قلبك يقينًا لا يتزعزع بأن هذا الكتاب {تنزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ العَالَمِينَ}، يأتي الخطاب في الآية الثالثة ليضعك أمام سؤال الوجود الأعظم: ماذا يقول المعرضون عن هذا اليقين؟ وكيف يثبت الله حقيقة الرسالة، ويكشف زيف الادعاءات، ويبين الغاية العظمى من إرسال الرسل وإنزال الكتب؟

تعال نعيش مع قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [السجدة: 3].

أولا ً: المشهد البياني والبلاغي في فاتحة الآية (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

.1"أمْ" .. حرف ينقلنا من مقام اليقين إلى مقام مواجهة الباطل
لاحظ كيف بدأت الآية بحرف "أمْ". إنها "أم" المنقطعة، وهي بمعنى "بل" مع همزة الاستفهام الإنكاري.
لم يقل سبحانه: "ويقولون افتراه"، بل قال: {أَمْ يَقُولُونَ}.

اللمسة البيانية والنفسية:

· الإضراب الانتقالي: بعد أن أثبت الله تعالى أن القرآن تنزيل ولا ريب فيه، ينتقل بك فجأة إلى ساحة الجدل البشري العقيم .وكأنه يقول لك: "بعد كل هذه الأدلة على أنه الحق من رب العالمين، وبعد أن شهدت أنت في أعماقك أنه لا ريب فيه، أمْ بعد كل هذا يقولون عنه إنه افتراه؟!"
· الاستفهام الإنكاري التعجبي: فيه استنكار وتعجب من حال هؤلاء المكذبين .إنه خطاب يخاطب عقلك بالاستنكار المنطقي: "كيف يجتمع يقينك أيها السامع، مع اتهامهم الباطل؟! أنت مع يقينك، وهم مع بهتانهم، فأين موقفك؟".

.2"افْتَرَاهُ" .. دقة الوصف ومواجهة الطعن

· الافتراء: هو الكذب العظيم المتعمد، اختلاق شيء من العدم ونسبته للغير .لم يقولوا "ألفه" أو "كتبه" ، بل قالوا "افتراه" أي نسبه إلى الله كذبًا.
· اللمسة البلاغية: ضمير الغائب "ـه" في "افتراه" يعود على "الكتاب" المذكور في الآية السابقة .إنه اتهام مباشر لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم بأنه كذاب على الله.

الرسالة التربوية لنا اليوم:
هذه الآية تنبهك أن أعداء الحق قديمًا وحديثًا يستخدمون نفس التهمة: الطعن في مصدر الوحي، زعزعة الثقة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. تراهم اليوم يسمونه "نصًا بشريًا" أو "نتاج البيئة" أو "اقتباسًا من كتب السابقين"، وكلها صور حديثة لـ "افْتَرَاهُ". فكيف تواجه هذا؟ الجواب في الكلمة التالية: {بَلْ}.
ثانياً: (بَلْ هُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ) .. صخرة اليقين التي تتحطم عليها شبهات المبطلين

.1"بَلْ" .. الإضراب الإبطالي

· بلاغة "بل": هي حرف عطف يفيد إبطال ما قبلها وتقرير ما بعدها .إنها ضربة قاضية لكل شبهة . كأنه يقول: "دعك من قولهم الباطل) افتراه(، وأقبل على الحقيقة المطلقة التي لا تتغير:} بَلْ هُوَ الحَقُّ{ ".
· الأثر النفسي: إنها تمنح المؤمن حصانة نفسية وعقلية .أنت في مواجهة الطعون لا تحتاج إلى الدخول في متاهات الردود الطويلة، بل تعود إلى القاعدة الصلبة:} بَلْ هُوَ الحَقُّ .{هذا هو منهج القرآن في بناء العقيدة: يقرر الحقائق، ثم يبطل الشبهات، لا العكس.

.2"الحَقُّ" .. ما هو الحق؟

· تعريف "الحق": هو الثابت الذي لا يتغير، المطابق للواقع، الموصول بمصدر الوجود .وصف القرآن بأنه "الحق" يعني أنه الحقيقة المطلقة، وكل ما عداه مما يخالفه فهو باطل زائل.
· اللمسة البيانية: استخدام "الحق" بصيغة الجملة الاسمية} بَلْ هُوَ الحَقُّ {يفيد الثبات والدوام .لم يقل: "بل كان حقًا") انقضى(، ولا "بل سيكون حقًا") مستقبل(، بل هو حق أبدًا .في كل زمان ومكان.

.3"مِن رَّبِّكَ" .. إضافة الرحمة والتشريف إلى اليقين
تأمل كيف عاد السياق إلى ذكر "الرب" ولكن بصيغة جديدة:

· في الآية السابقة قال:} مِن رَّبِّ العَالَمِينَ{، وهنا قال:} مِن رَّبِّكَ .{لماذا؟
· التخصيص والتشريف للنبي صلى الله عليه وسلم: "ربك" أيها النبي، خطاب مباشر .إنه تثبيت لقلبه صلى الله عليه وسلم في مواجهة قولهم "افتراه" .وكأن الله يقول له: "لا تحزن لقولهم، فهو حق مني أنا ربك، الذي يربيك وينصرك ويكفيك شرهم".
· الرسالة النفسية لنا: عندما تواجهك طعون في دينك، أو تشكيك في سنة نبيك، تذكر أن هذا الدين من "ربك" أنت أيضًا، يا من تقرأ الآية .هو ربك الذي يرعاك، ولن يضيع من تمسك بحقه.
ثالثاً: (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ) .. بيان الغاية والمهمة العظمى

هذه الجملة تجيب على السؤال الكبير: لماذا أنزل الله هذا الكتاب الحق؟

.1"لِتُنذِرَ" .. الإنذار قبل التبشير

· الإنذار: هو الإخبار بما يخاف، مع إعطاء مهلة للاستعداد والنجاة .إنها مهمة شاقة، لكنها مهمة رحمة.
· دلالة البدء بالإنذار: لأن الإنسان بطبيعته غافل، مشغول بالدنيا، يحتاج إلى صدمة إيقاظ تخرجه من سباته .الإنذار هو جرس الخطر الذي يدفع الإنسان للبحث عن مخرج.
· التربية العملية: في حياتنا اليومية، قد يكون من الخير أن نبدأ أبناءنا ومن حولنا بالتخويف من عواقب الذنوب، لا فقط بالترغيب في الطاعات .إنه منهج قرآني متوازن.

.2"قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ" .. من هم هؤلاء؟

· المراد: العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا في فترة "الجاهلية"، فترة انقطاع الرسل بعد عيسى عليه السلام} .مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ {أي لم يأتهم رسول منذ زمن بعيد) إلا ما

كان من بقايا الحنيفية ودعوة إسماعيل الخافتة.(
· اللمسة البلاغية: استخدام "مِنْ" في} مِّن نَّذِيرٍ {و} مِّن قَبْلِكَ {للتأكيد على استغراق النفي .لم يأتهم أي نذير، ولو كان يسيرًا، في الزمن الذي يسبقك مطلقًا.

.3الربط بين الغاية والواقع: رحمة الله في إرسال الرسل
هذه الآية تظهر لك رحمة الله بالعالمين التي تحدثنا عنها في الآية السابقة. لم يتركهم الله في ضلا لتهم بلا حجة. أرسل لهم الحق لينقذهم من النار. إنها رحمة الإرسال قبل رحمة القبول.

درس حياتي عملي:

· شكر النعمة: أنت أيها المسلم، ولدت في أمة بعث فيها النبي الخاتم، فأنت من "قوم أتاهم نذير" . هذه نعمة عظمى تستوجب شكرًا دائمًا .كيف تشكرها؟ بالتمسك بهذا "الحق" وتبليغه للناس .ألست أنت وارث النبي في الإنذار والتبشير؟ "بلغوا عني ولو آية".
رابعاً: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .. أمل النجاة ومسؤولية الاختيار

.1دلالة "لَعَلَّ" .. الرجاء الإلهي المفتوح

· "لعل" من الله تفيد الترجي بالنسبة للمخاطبين، أي أن الله جعل الغاية من الإنذار أن يكونوا على رجاء من الهداية.
· اللمسة النفسية: إنها تفتح باب الأمل .الله تعالى، وهو القادر على هدايتهم جبرًا، جعل الهداية اختيارًا، ووضع أمامهم الأسباب) الكتاب، النذير(، وقال:} لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .{لا تقنط من هداية أحد، فما دامت "لعل" موجودة، فالرجاء قائم .لا تقل عن عاص: "هذا لا يهتدي أبدًا" .أنت لا تدري، لعله يهتدي.

.2"يَهْتَدُونَ" .. الهدف الأسمى من كل التنزيل

· الهداية: هي الوصول إلى الحق والعمل به .هي ثمرة اليقين) من الآية السابقة (وثمرة الإنذار) من هذه الآية.(
· الارتباط بالآيات السابقة:
· في الآية(2) :} لَا رَيْبَ فِيهِ = {الأساس النظري.
· في الآية(3) :} لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ = {النتيجة العملية.
فالغاية من اليقين أن تهتدي، والهداية هي أن تجعل حياتك موافقة للحق.

خامساً: الدروس والتطبيقات العملية في حياتنا من الآية الثالثة

الدرس الأول: الثبات على الحق في زمن الشبهات
عندما يقول أعداء الإسلام اليوم: "القرآن من تأليف محمد، اقتبسه من التوراة والإنجيل، أو هو نتاج ثقافة عصره". فماذا تفعل؟

· التطبيق: استحضر} بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .{لا تنشغل كثيرًا برد الشبهة التاريخية بنفسك إن كنت غير متخصص، بل تمسك باليقين .قل في قلبك: "أنا على يقين أنه حق من ربي، وما دام حقًا فلا يضره باطلهم" .هذا الموقف يعطيك ثباتًا نفسيًا، يمنع الشك أن يتسرب إلى قلبك.
· مثال واقعي: شاب في الجامعة، يدرس مع مستشرقين أو ملحدين، ويُلقى عليه شبهات يومية .إذا لم يكن مزودًا بيقين} بَلْ هُوَ الْحَقُّ{، قد يضعف .لكنه إذا تلا هذه الآية كل يوم، شعر أن الله يثبته كما ثبت نبيه.

الدرس الثاني: رسالة الإنذار .. مسؤوليتك أنت

· "لِتُنذِرَ" خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو خطاب لأمته أيضًا في حدود قدرتها .كيف تنذر اليوم؟
.1 في البيت: تنذر أولادك من تضييع الصلاة، من آفات اللسان، من أصدقاء السوء .لا تكتفِ بـ الترغيب فقط، بل استخدم أسلوب الإنذار بالحكمة.
.2 في العمل: تنذر زميلك الذي يأكل الربا، أو يغتاب الناس، بأن هذا حرام، وبأن له عذابًا أليمًا . ليس بالضرورة أن تخطب خطبًا، بل كلمة حق في وقتها صدقة.
· المثال: عندما ترى ابنك يهمل دراسته، لا تقل فقط: "ادرس لتنجح"، بل قل: "يا بني، طلب العلم فريضة، والتفريط في الواجب محاسب عليه بين يدي الله .هذا القرآن الحق يأمرنا بإتقان العمل".

الدرس الثالث: قيمة الرسل والأنبياء في حياتنا (ما أتاهم من نذير)
كثير من الناس يعيشون غافلين عن نعمة النبوة. يعتبرون قصص الأنبياء مجرد تاريخ. هذه الآية تذكرك أنك كنت ستعيش في ظلام دامس لولا أن أرسل الله النذير.

· التطبيق العملي: عندما تقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لا تقرأها للتسلية، بل اقرأها على أنها إنقاذ لك من النار .هو الذي أخرجك من عبادة الأصنام والهوى إلى عبادة رب العالمين .هذا الشعور يجعلك تحبه أكثر، وتتبعه أكثر.

الدرس الرابع: الرجاء في هداية الخلق (لعلهم يهتدون)

· المفهوم: لا تيأس من إصلاح أحد .كثير من الآباء ييأسون من أبنائهم، والأزواج من أزواجهم، و الدعاة من الناس ."لعل" تذكرك أن الهداية بيد الله، ودورك هو الإنذار والتبليغ.
· المثال: شاب تائب، عاش حياة مليئة بالمعاصي، وأبوه يدعو له كل ليلة .قد يظن الأب أن ابنه لن يهتدي أبدًا .هنا يأتي الرجاء} لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ {فيدفع الأب للاستمرار في الدعاء، فيستجيب الله ويهدي الشاب فجأة .هذه هي ثمرة التمسك بالرجاء القرآني.
سادساً: اللمسات البيانية والبلاغية في الآية (مركزة)

· التضاد بين "افْتَرَاهُ" و"الحَقُّ": جمع بين الباطل) الافتراء (والحق في آية واحدة، ليكون الفرق واضحًا كالشمس .لا يجتمعان أبدًا.
· تغيير الخطاب من "رب العالمين" إلى "ربك": التفات بديع للانتقال من تقرير عام) الربوبية المطلقة (إلى تشريف خاص) ربوبية التثبيت والعناية .(هذا يلمس شغاف قلب النبي صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن يقرأ الآية.
· تأكيد المعنى بالجملة الاسمية:} بَلْ هُوَ الحَقُّ {جملة اسمية تدل على الثبات والدوام، بينما} أَمْ يَقُولُونَ {فعلية تدل على الحدوث والتجدد) أي أنهم يجددون هذه التهمة بين الحين والآخر، ولكنها تظل متجددة البطلان أمام الحق الثابت.(
· بناء الغرض بـ "ل-" التعليل:} لِتُنذِرَ {لام التعليل تربط بين نزول "الحق" والهدف العملي منه .فالقرآن ليس كتاب فلسفة نظرية، بل كتاب عمل وإنذار وهداية.
سابعاً: كيف نخرج من الآية بقلب ساجد خاضع؟

أنت الآن تقف على مشارف الآية الثالثة. ماذا يجب أن يحدث في قلبك؟

.1اشعر بالأسى على حال المكذبين: ليس شماتة، بل رحمة .هم يقولون "افتراه" لأنهم لم يذقوا حلا وة "لا ريب فيه" .فاعزم على أن تكون سببًا في تعريفهم بالحق.
.2اشكر الله على نعمة "النذير": لو لم يأتِ محمد صلى الله عليه وسلم، لكنت تعبد حجرًا، أو تعيش في حيرة وقلق .اسجد لله شكرًا على هذه النعمة.
.3احمل هم "الإنذار": في محيطك الصغير .أسرتك تحتاج إلى نذير من الغفلة .زملاؤك يحتاجون إلى من يوقظهم من سبات المعاصي .كن أنت هذا النذير بالحسنى.
.4تعلق بـ "لعلهم يهتدون": أصلح نيتك في كل عمل دعوي أو تربوي .قل: "اللهم إنما أنا منذر، وأنت الهادي، فاجعل هداية من حولي على يدي، لعلهم يهتدون ".

خاتمة: دروس حياتية خالدة

لقد جمعت هذه الآية الكريمة بين تثبيت العقيدة في وجه الشبهات {بَلْ هُوَ الحَقُّ}، وبيان وظيفة المسلم في الحياة {لِتُنذِرَ}، وترسيخ الأمل في الله {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.

إنها تخرجك من دائرة المتلقي السلبي للحق، إلى دائرة الحامل النشط للحق. لا تكن ممن يسمع {لَا رَيْبَ فِيهِ} ويجلس في بيته، بل كن ممن يسمع {لِتُنذِرَ} فينطلق إلى الناس رحمة وهداية.

فاجعل هذه الآية وقودًا ليقينك، وبوصلة لعملك، وبلسمًا لرجائك. وصلى الله على سيدنا محمد النبي ا لأمي، الذي أرسله ربه {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}.
المبحث الثالث
أيها المتدبر، يا من آنست في قلبك قبسًا من اليقين من قوله تعالى: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ}، ويا من سمعت النداء للإنذار والهداية في قوله: {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ}. لقد آن لك أن تعرف من هو هذا الرب الذي أنزل الكتاب الحق. آن لك أن تتأمل في ملكوته، وفي تدبيره، وفي قدرته، وفي

علمه.

بعد أن أثبتت الآيات السابقة مصدر الرسالة وصدقها، تأتي هذه الآيات الثلاث لتثبت عظمة المرسِل، ليمتلئ قلبك هيبة وخشوعًا وخضوعًا. تعال نغص معًا في بحار قوله تعالى:

}اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَٰلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ{(6)
تمهيد: الربط بين آية الإنذار وآية الخلق

في الآية السابقة، أخبرك الله أنه أرسل النبي {لِتُنذِرَ}، وأكد أن هذا القرآن {الحَقُّ مِن رَّبِّكَ}. وهنا ينتقل السياق ليكشف لك أبعاد ربوبيته، حتى إذا وعيت عظمته، استجبت لإنذاره واتبعت هداه.

الربط النفسي والعقلي هنا بديع:

· أراد الله أن تطيعه؟ فتعرف أولا ً على قدرته التي خلقت السماوات والأرض.
· أراد الله أن تخافه؟ فاعلم أنه} اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ {مالك الأمر كله، ولا ينفعك غيره.
· أراد الله أن تثق بتدبيره؟ فانظر إلى} يُدَبِّرُ الأَمْرَ.{
· أراد الله أن توقن بعلمه؟ فاستحضر أنه} عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.{
الأمر الأول: تفسير الآية الرابعة (اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ...)

أولا ً: التحليل البياني والبلاغي

.1"اللهُ" .. لفظ الجلالة العظيم
البدء بـ اسم الجلالة (الله) بعد الحديث عن "ربك" و"رب العالمين" هو انتقال من وصف الفعل (الربوبية والتربية) إلى الذات المقدسة. "الله" هو الاسم الجامع لكل صفات الكمال والجلال. إنه يزرع في القلب المهابة المطلقة. عندما تقرأ: {اللهُ الذِي خَلَقَ...} فأنت أمام ذات الله، لا أمام فعل من أفعاله فحسب.

.2"الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا" .. إحاطة الخلق وعظمته

· "خَلَقَ": فعل يدل على الإبداع والإيجاد من عدم .لم يقل "صنع" أو "بنى"، بل "خلق"، أي أوجد على غير مثال سابق.
· "السَّمَاوَاتِ": بصيغة الجمع، لتشمل كل ما علا وارتفع من العوالم والأبعاد التي لا يعلمها إلا هو.
· "وَمَا بَيْنَهُمَا": هذه اللفتة القرآنية المعجزة تشمل كل ما لا تراه العين؛ الهواء، الغلاف الجوي، الموجات، الملائكة، القوى التي تربط الكون .إنها إشارة إلى أن كل شيء داخل في ملكه وتدبيره.

.3"فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ" .. حكمة التدرج والتربية على الأناة

· لماذا ستة أيام وهو القادر على أن يقول: كن فيكون؟
· اللمسة التربوية: تعليم الإنسان التأني والتدرج في الأمور .الله القدير، الذي لو شاء لخلق الكون في لحظة، خلقه في ستة أيام ليعلمك ألا تستعجل النتائج .في حياتك، في مشاريعك، في تربية أولا دك، لا تتعجل قطف الثمار قبل نضجها .ستة أيام تعني أن لكل شيء أجلًا مقدورًا.

.4"ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ" .. عرش الملك والتدبير

· اللمسة البيانية:
· "ثُمَّ": حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي .بعد خلق الكون، استوى على العرش .هذا الاستواء ليس استواءً مكانيًا) فـالله منزه عن المكان(، بل هو استواء يليق بجلاله، معناه العلو والقهر والاستيلا ء والملك التام.
· "العَرْشِ": هو أعظم المخلوقات، وهو مركز تدبير الأمر في الملكوت .ذكر العرش بعد الخلق يعطي مشهدًا ملكيًا مهيبًا: الكون خُلق، والملك استوى على عرشه يدبر الأمر.
· الأثر النفسي:
عندما تستقر هذه الصورة في قلبك: أن الله على العرش، أن أمرك بيد من يدبر السماوات والأرض من فوق عرشه العظيم ...أتظل قلقًا على رزقك؟ أتظل خائفًا من مخلوق؟ كلا، لأن الأمر كله يصدر

من فوق العرش.

5."مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ" .. قطع الأسباب الظاهرة

· اللمسة البيانية:
· "مَا لَكُم": خطاب مباشر لك أيها الإنسان .إنه استفهام إنكاري بمعنى النفي.
· "وَلِيٍّ": الناصر والقريب الذي يتولى أمورك.
· "شَفِيعٍ": الذي يشفع لك ويدفع عنك الضر.
· "مِن دُونِهِ": أي من غيره.
· الرسالة النفسية:
هذا هو المقطع الذي يحررك تمامًا من التعلق بالأسباب .كل من في الأرض من عظماء وقادة وأغنياء لا يملكون لك من دون الله شيئًا .لا ولي يحميك، ولا شفيع يخلصك .كل الطرق إلى النجاة مسدودة إلا طريق الله .إنها دعوة إلى التجريد التام للتوحيد.

6."أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ" .. توبيخ العقل الغافل

· "أَفَلَا": الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف، و"لا" للنفي .يعني: "أبعد كل هذه الآيات والدلائل العظيمة، لا تعقلون ولا تتذكرون؟!"
· التربية العملية:
هذه الآية تطرق باب العقل .إنها تستحثك على التفكر .من خلق السماوات والأرض؟ الله .من بيده ملكوت كل شيء؟ الله .فلماذا تلجأ لغيره؟ لماذا تذل لسواه؟ تذكر أن ملك الملوك هو وليك، فعلامَ الخوف؟
ثانياً: الدروس والتطبيقات العملية من الآية الرابعة

الدرس الأول: الراحة النفسية في ظل "العرش"
عندما تثقل عليك الهموم، وترى الدنيا قد أظلمت في وجهك، ارجع إلى هذه الآية. قل في نفسك: "أنا في ملك من؟ أنا في ملك من استوى على العرش". هذه الجملة كفيلة بأن تمنحك طمأنينة عجيبة. لماذا؟ لأن العرش يعني السلطان المطلق. من كان تحت سلطان مطلق من الرحمن، فلا يخاف ظلم ظالم ولا جور جائر.

مثال واقعي:
موظف مظلوم في عمله، يخشى أن يتكلم بالحق فيفصل من وظيفته. لو تذكر قوله تعالى: {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ}، لعلم أن المدير لا يملك له ضرًا ولا نفعًا إلا بإذن الله، وأن رزقه بيد من استوى على العرش، فيتكلم بالحق ويثبت، ويرى عون الله له.

الدرس الثاني: التأني في تربية النفس والغير
{فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} تعلمك أن التغيير يحتاج وقتًا. كثير من الشباب يريد أن يصبح "متدينًا" في ليلة وضحاها، فيحمل نفسه فوق طاقتها في العبادة ثم ينقطع. هذا خطأ. الله قادر على خلقك متدينًا دفعة واحدة، لكنه يربيك بالتدريج. فترقّ في سلم الطاعات درجة درجة. تعاهد نفسك ولو بالقليل الدائم. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل".
الأمر الثاني: تفسير الآية الخامسة (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ...)

أولا ً: التحليل البياني والبلاغي

1."يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" .. سر الحياة وحركة الكون

· "يُدَبِّرُ": فعل مضارع يفيد الاستمرارية والتجدد .التدبير ليس حدثًا وقع وانتهى، بل هو شأن يومي، كل يوم هو في شأن .إنزال الأرزاق، الإماتة والإحياء، رفع أقوام وخفض آخرين، كل ذلك من تدبير الأمر.
· "الْأَمْرَ": مفرد معرف بأل الجنسية، ليشمل كل الأمور، كبيرها وصغيرها، ما يتعلق بالنجوم وما يتعلق بذبذبات قلبك.

2."مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ" .. نزول الأقدار

· اللمسة البلاغية:

بدأ بـ "مِنَ السَّمَاءِ" للإشارة إلى علو المصدر وقدسيته .الأمر ينزل من عند من استوى على العرش . إنه ترتيب إلهي محكم.
· الرسالة التربوية:
لا تنظر إلى الأحداث الأرضية على أنها عشوائية أو نتيجة صراعات بشرية فقط .كل شيء يحدث في الأرض له أصل في السماء، أي بتقدير وتدبير من الله .هذا يجعلك تنظر إلى المصائب والمحن بنظرة أخرى: إنها جزء من تدبير} مِنَ السَّمَاءِ{، لحكمة يعلمها الله.

.3"ثمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ" .. عروج الأعمال والأخبار

· "يَعْرُجُ": الصعود والارتفاع .ما الذي يعرج؟ الأعمال، أرواح المؤمنين، أخبار العباد .كل شيء يصدر عنه، ثم يعود إليه.
· دلالة "ثمّ": التراخي الزمني .الأمر ينزل من السماء ليعمل في الأرض زمنًا، ثم تعرج نتائجه وأخباره إليه سبحانه .إنها دورة كونية عظيمة: نزول الأمر ..وقوعه في الأرض ..عروجه للعرض والحساب.

.4"فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ أَلفَ سَنَةٍ مِّمَّا تعُدُّونَ" .. نسبية الزمن في الملكوت

· اللمسة العقلية والعلمية:
هذه الآية تفتح أمام العقل أفقًا واسعًا .اليوم عند الله ليس كيومنا} .ألفَ سَنَةٍ {ليست حدًا، بل هي تقريب لعقولنا المحدودة .إنها تشير إلى عظمة الخالق وبعد ما بين السماء والأرض، حتى أن الأمر الذي يعرج إليه يستغرق في عروج الملائكة به مقدار ألف سنة مما نعد، وهو يسير على الله.
· الأثر النفسي:
عندما يتأخر عليك أمر، وتظن أن الفرج قد طال، تذكر أن الأيام عند الله ليست كأيامك .ألف سنة عندك كلحظة عنده .لا تستبطئ الإجابة، ولا تيأس من روح الله .إنه يدبر الأمر بمقياس زمني مختلف تمامًا عن مقياسك.
ثانياً: الدروس والتطبيقات العملية من الآية الخامسة

الدرس الأول: فن تفويض الأمر إلى المدبر
إذا كان {يُدَبِّرُ الأَمْرَ}، فلماذا تتدخل أنت في أقدار الله بقلقك؟ كثير من الناس يصابون بالأرق والا كتئاب لأنهم يريدون تدبير الأمور بأنفسهم. يخططون، وعند أول مطب ينهارون. المؤمن يعيش راحة التفويض. يخطط ويعمل، نعم، لكن قلبه معلق بالسماء: "يا رب، أنا فعلت ما بوسعي، والتدبير تدبيرك".

مثال واقعي:
تاجر خسر في صفقة. قد يصيبه الهم لدرجة المرض. لكنه لو قرأ {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ}، لعلم أن خسارته لم تكن ضربة حظ عشوائية، بل هي أمر نزل من السماء لحكمة: ربما ليكفر عنه ذنبًا، أو ليدفعه إلى باب التوبة والدعاء. هذا الشعور يحول الخسارة المالية إلى ربح إيماني.

الدرس الثاني: استشعار مراقبة العروج (ثمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ)
كل كلمة تقولها، كل نظرة، كل نية... تعرج إلى الله. تخيل عملك يصعد في ملكوت الله. ألا تستحي أن يصعد إلى الله غيبة أو نظرة محرمة؟ هذا الاستشعار هو أقوى رادع أخلاقي.

· التطبيق: قبل أن تهم بأي فعل، اسأل نفسك: "هل يليق بهذا الفعل أن يعرج إلى رب العزة؟" .إن كان خيرًا فأقدم، وإن كان شرًا فأحجم .هذه الآية تجعلك تعيش الآخرة في الدنيا.
الأمر الثالث: تفسير الآية السادسة (ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ)

أولا ً: التحليل البياني والبلاغي

.1"ذَلِكَ" .. اسم الإشارة للتعظيم

· "ذَلِكَ": اسم إشارة للبعيد، يُستعمل هنا لرفع شأن المشار إليه .أي: ذلك العظيم الشأن، الموصوف بما تقدم من الخلق والتدبير والاستواء.

.2"عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ" .. الإحاطة المطلقة بالعلم

· "الغَيْبِ": ما غاب عن حواسك وعلمك؛ ما في الأرحام، أسرار الصدور، أحداث المستقبل.
· "الشَّهَادَةِ": ما تشهده الأبصار والعقول.

· اللمسة البيانية: تقديم "الغيب" على "الشهادة" لأن السياق يتحدث عن التدبير السماوي الذي يخفى علينا، ولأن علم الغيب هو الأكثر إبهارًا للعقل.
· الارتباط بما سبق:
في نهاية سورة لقمان:} إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{، وفي بداية السجدة:} عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .{وكأن السورة تؤكد لك: لا تظن أن الله غافل عما يدبره أعداؤك من} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .{هو يعلم سرهم ونجواهم، وهو يعلم صدق نبيه، وسيظهر الحق.

.3"الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" .. اقتران القوة بالرحمة

· "الْعَزِيزُ": الغالب الذي لا يُغلب، القوي الذي لا يُعجزه شيء .من اعتز بغيره ذل، ومن اعتز بالله عز.
· "الرَّحِيمُ": الذي وسعت رحمته كل شيء، ورحمته خاصة بالمؤمنين.
· السر البلاغي في الجمع بينهما:
لو كان "عزيزًا" فقط، لكان العبد في خوف ورعب دائم .ولو كان "رحيمًا" فقط، لتهاون العباد .ولكن الجمع بين العزة والرحمة يحقق التوازن النفسي: يخاف العبد عزة الله فيجتنب معصيته، ويرجو رحمته فيقبل على طاعته .إنه مزيج يبني شخصية المؤمن المتوازنة بين الخوف والرجاء.
ثانيًا: الدروس والتطبيقات العملية من الآية السادسة

الدرس الأول: حماية النفس من القلق بعلم الغيب
من أكبر أسباب القلق النفسي: الخوف من المجهول. ماذا سيحدث غدًا؟ ماذا يخبئ لي القدر؟ الجواب في {عَالِمُ الْغَيْبِ}. إذا كنت تعلم أن غيرك لا يعلم الغيب، فلماذا تخاف من تهديداتهم وتكهناتهم؟ هم أيضًا في حيرة من أمرهم.

· مثال واقعي: شخص يخاف من الطيران بسبب الحوادث .هذا الخوف سببه الجهل بالغيب .أما المؤمن فيقول: "ربي عالم الغيب، وأنا في قبضته، إن أراد لي خيرًا أو شرًا فهو بعلمه، ولن يصيبني إلا ما كتب الله لي" .هذا اليقين يمنحه شجاعة عجيبة في مواجهة مخاوف الحياة.

الدرس الثاني: العزة بالله وحده
"الْعَزِيزُ" تعني أن كل عزيز في الأرض ذليل إلا من أعزه الله. كثير من الناس يطلبون العزة بالمال، بالمنصب، بالقبيلة. لكن الله يقول: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]. استشعر أنك تتعامل مع العزيز، فلا تذل نفسك لغير العزيز. من اعتذر لك عن إعطائك حقك خوفًا من مخلوق، فاعلم أنه أذل نفسه، فلم يعزها بالله.

الدرس الثالث: كن رحيمًا لتستحق الرحمة
"الرَّحِيمُ" هو اسم من أسمائه الحسنى. تأدب مع هذا الاسم. كما أن الله رحيم بك، كن رحيمًا بخلقه. لا تكن فظًا غليظًا مع أهلك وخدمك ومن تحت يدك. كلما رحمت ضعيفًا، أو عفوت عن مسيء، فأنت تتخلق بصفة "الرحيم"، وبذلك تستجلب رحمة أرحم الراحمين. قال صلى الله عليه وسلم: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".
خاتمة جامعة: كيف تخرج من الآيات الثلاث بقلب خاشع وحياة مطمئنة؟

بعد هذه الرحلة المباركة مع {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ... يُدَبِّرُ الْأَمْرَ... عَالِمُ الْغَيْبِ}، عليك أن تخرج بهذه الحقائق العملية لتغير حياتك:

.1توحيد الخوف والرجاء:
اجعل هذه الآيات وردك اليومي عند النوم .قل في سرك: "يا من خلق السماوات والأرض، يا من استوى على العرش، يا من يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، أنت وليي، لا ولي لي سواك .أنت عالم الغيب، تدبر لي ما لا أعلمه أنا .أنت العزيز الذي يحميني، وأنت الرحيم الذي يرحمني".
بهذا الدعاء، تبيت وقلبك معلق بالسماء.
.2التفويض الكامل:
في كل صباح، قل: "اللهم دبر أمري من السماء إلى الأرض، فإني لا أحسن التدبير" .عندما تقولها بصدق، ستجد في قلبك سكينة عجيبة، وستجد في يومك تيسيرًا لم تكن تتوقعه.
.3استحضار العرش عند الشدائد:
إذا ادلهمت بك الخطوب، فتذكر} ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .{قل لنفسك: "أنا تحت عرش الرحمن، لا تحت سقف فلان" .هذه الجملة الواحدة كفيلة بأن تجعلك تعيش عزة المؤمن في أرض الذل.
.4الصبر الجميل) مستفاد من يوم الألف سنة(:

لا تستعجل إجابة الدعاء .أنت في مقياس} ألفَ سَنَةٍ {تستبطئ الخير، والله في عليائه يقول للشيء: كن فيكون .وطن نفسك على طول النفس في العبادة والتربية والعمل .لا تمل من الدعاء، ولا تكل من المحاولة.

المبحث الرابع

أيها السائر في رحاب التدبر، يا من أبحرت في ملكوت الله من خلال خلق السماوات والأرض، ويا من أيقنت أن الأمر كله بيده، ينزل من السماء ويعرج إليه، ويا من امتلأ قلبك هيبة من {عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزِ الرَّحِيمِ}. لقد آن لك أن تقف مع أعظم آيات الله في نفسك، مع سر وجودك، مع كرامتك التي منحك إياها ربك، ومع النعم التي تحيط بك من كل جانب وأنت غافل عنها.

بعد أن عرض الله تعالى مشهد الخلق الكوني في الآيات السابقة، ينقلك هنا إلى مشهد الخلق الإنساني ، لتعلم قدرك، وتذكر أصلك، وتشكر نعمة ربك، وتوقن بأن الذي أحسن خلق السماوات والأرض هو الذي أحسن خلقك وسواك.

تعال نعيش مع قوله تعالى:

}الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ [{(9)السجدة:7 -9]

تمهيد: الربط بين الآيات الكونية والآيات الإنسانية

في الآيات السابقة، كنت تنظر إلى الخارج: إلى السماوات، إلى الأرض، إلى العرش، إلى تدبير الأمر النازل من السماء. كان عقلك مشدودًا إلى عظمة الكون.

أما هنا، فيأخذك الله إلى رحلة في داخلك، في أصل خلقك، في سر وجودك، في نعمك التي بين جنبيك. وكأنه يقول لك:

"أيها الإنسان، لقد أبصرت عظمتي في الآفاق، فانظر الآن عظمتي في نفسك} .وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ] {الذاريات:[21 ".

هذا الانتقال من الكوني إلى الإنساني له حكمة تربوية عظيمة: تثبيت العقيدة عبر القريب الملموس. الكون بعيد، لكن أنت قريب من نفسك. عندما تتأمل كيف خُلقت، وكيف صرت إنسانًا سميعًا بصيرًا عاقلا ً، ستزداد يقينًا بعظمة الخالق، وستشعر بقيمة المنهج الرباني الذي يخاطبك في هذا القرآن.

الأمر الأول: تفسير الآية السابعة (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...)

أولا ً: التحليل البياني والبلاغي

.1"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" .. قاعدة الإتقان الإلهي المطلق

· الموصول "الَّذِي": عائد على اسم الجلالة} ذَٰلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ {في الآية السابقة .أي: ذلك الذي أحسن كل شيء خلقه .فيه إشارة إلى أن صفة الإحسان في الخلق هي من مقتضيات العزة والرحمة، ومن د لائل علم الغيب والشهادة.
· "أَحْسَنَ": فعل ماضٍ يدل على الإتقان والجمال والإبداع .لم يقل: "خلق كل شيء" فقط، بل أحسن . الفرق كبير: الخلق هو الإيجاد، والإحسان هو الإيجاد في أبهى صورة وأكمل هيئة.
· "كُلَّ شَيْءٍ": لفظ شامل لا يستثني شيئًا .كل مخلوق، من الذرة إلى المجرة، من الفيروس إلى الحوت، من نملة إلى جبل، خلقه حسن متقن في موضعه.
· "خَلَقَهُ": الفعل "خلق" مأخوذ من مادة) خ ل ق (التي تدل على التقدير .فالإحسان هنا في التقدير و التصميم قبل الإيجاد.

اللمسة البلاغية:

· تقديم الإحسان على الخلق: قال} أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ {ولم يقل: "خلق كل شيء فأحسنه" .هذا التقديم يفيد أن صفة الإحسان هي الملازمة لخلقه سبحانه، وأن كل ما يخلقه فهو محسن فيه ابتداءً، لا أنه خلقه ثم أصلحه .إنه كمال مطلق في الخلق الأول.

· بناء الجملة: الجملة خبرية تفيد الثبوت .إنها حقيقة كونية: كل ما تراه حولك هو في غاية الإتقان.

الرسالة العقلية والعلمية:
العلم الحديث بكل اكتشافاته يؤكد هذه الآية. كلما تعمق العلماء في دراسة الذرة، أو الخلية، أو DNA، أو النظام البيئي، يخرجون بنتيجة واحدة: هذا النظام معقد ودقيق لدرجة يستحيل معها أن يكون عشوائيًا. إنه إحسان في الخلق.

· مثال علمي: شكل عين النحلة السداسي، اختيار أدق المهندسين لأنه أفضل شكل هندسي لتخزين العسل بأقل كمية من الشمع .من علم النحلة هذا؟ إنه} الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.{

.2"وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ" .. الإعلان عن الأصل المتواضع

· "بَدَأَ": إشارة إلى أن للخلق الإنساني بداية، وأنه مخلوق حادث بعد أن لم يكن، وليس أزليًا ولا متطورًا من قردة كما يزعم البعض .بداية الإنسان من طين.
· "الإِنسَانِ": اسم جنس يشمل آدم عليه السلام وذريته .فالبداية الأولى) آدم (من طين، وهذا هو التكريم الأول: أن يكون أصله من أديم الأرض.
· "مِن طِينٍ": الطين هو التراب المخلوط بالماء .هذا العنصر المتواضع الذي تدوسه الأقدام هو مادة خلق أبيك آدم .وفي هذا إشارة إلى قدرة الله المطلقة التي تصنع من الطين كائنًا ينطق ويعقل ويسجد له الملائكة.

الرسالة التربوية والنفسية:

· كسر الكبرياء: لماذا يذكرنا الله بأصلنا الطيني؟ لنكسر الكبر في نفوسنا .أنت أيها الإنسان، مهما بلغت من جاه ومال، أصلك من طين .تذكر هذا كلما أحسست في نفسك خيلاء على عباد الله .تذكر أنك "ابن الطين"، وأن من تتكبر عليهم هم أيضًا "أبناء الطين".
· مثال واقعي: مدير متكبر على موظفيه، يرى نفسه أفضل منهم .لو قرأ هذه الآية بتدبر:} بَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ{، لقال لنفسه: "من أنا لأتكبر؟ هل أنا إلا قبضة من طين سواها الله؟" .هذا التذكر يجعله يتواضع ويلين جانبه.

ثانيا: الدروس والتطبيقات العملية من الآية السابعة

الدرس الأول: الإحسان في العمل عبادة
إذا كان الله {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، فأنت أيها العبد مأمور بالتخلق بهذه الصفة في حدود قدرتك. ق ال صلى الله عليه وسلم: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" [رواه مسلم].

· التطبيق في الحياة اليومية:
· في وظيفتك: لا تؤدِ عملك بشكل روتيني لمجرد قبض الراتب .أحسن فيه .الموظف الذي يؤدي عمله بإتقان يعبد الله بصورة عملية .المهندس الذي يراعي الدقة، المعلم الذي يطور أسلوبه، الطبيب الذي يعامل المريض برفق ...كلهم يطبقون} أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ.{
· في عبادتك: لا تصلِّ صلاة سريعة كأنك تريد التخلص منها .أحسن صلاتك، أقبل على الله بقلبك، اقرأ بتدبر، اطمئن في ركوعك وسجودك .إحسان العبادة هو ثمرة إيمانك بأن الله أحسن إليك.

الدرس الثاني: تذكر الأصل الطيني دواء للكبر والغرور
خصص لنفسك موقفًا يوميًا تتذكر فيه أصلك. عندما تغضب، عندما تشعر أنك أفضل من غيرك، قل في سرك: "أنا من طين". هذه الكلمة البسيطة تكسر حدّة الغضب، وتطفئ نار الكبر. جربها مرة، سترى كيف يهدأ بالك وتتواضع نفسك.

الأمر الثالث: تفسير الآية الثامنة (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ)

أولا ً: التحليل البياني والبلاغي

.1"ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ" .. انتقال التناسل البشري

· "ثُمَّ": حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي الزمني .بعد أن خلق أبانا آدم عليه السلام من طين بداية، جاءت المرحلة الثانية: استمرار النسل البشري بطريقة أخرى مختلفة تمامًا.

· "نَسْلَهُ": النسل هم الذرية والولد .الضمير "ـه" يعود على الإنسان) آدم .(أي أن ذرية آدم جُعلت من مادة أخرى.

.2"مِن سُلَالَةٍ" .. استخلاص الجوهر من الشيء

· "سُلَالَةٍ": مأخوذة من "سلّ" بمعنى انتزع واستخرج برفق .السل هو إخراج الشيء من الشيء بخفة ولطف .فالسلالة هي الخلاصة والصفوة التي تُستخرج من شيء.
· اللمسة العلمية الدقيقة:
هذه اللفظة معجزة! النطفة) الحيوان المنوي (هي خلاصة الجسم البشري كله، تُستل وتُستخرج من بين الصلب والترائب .إنها تحمل الشفرة الوراثية (DNA) الكاملة للإنسان .العلم الحديث يثبت أن المني هو "سلالة" حقيقية، فيه صفات الآباء مجتمعة.

.3"مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ" .. وصف الحقيقة بالضعف والذلة

· "مَاءٍ": هو المني، النطفة.
· "مَّهِينٍ": من المهانة، أي ضعيف، حقير، قليل القيمة .إنه ماء مهين في ذاته، لا قيمة له، يستقذره الإ نسان لو وقع على ثوبه.

اللمسة البلاغية والنفسية العجيبة:
انظر كيف يجمع الله بين العزة والذل في خلق الإنسان:

· في الآية(7) : أصله من طين) تواضع.(
· في الآية(8) : نسله من ماء مهين) مزيد تواضع وذل.(
إنه يخاطب كبرياءك أيها الإنسان: "أنت أيها المتكبر، أصلك من طين تداس، ونسلك من ماء مهين تستحي من ذكره، فمن أين لك هذا الكبر؟!".

.4التناسق مع ما قبلها:

· في الآية(7) : بداية خلق آدم من طين) مادة أولية جامدة.(
· في الآية(8) : استمرار النسل من ماء مهين) مادة حية سائلة.(
إنها مراحل الخلق: بدأ من جماد) طين(، ثم صار نسلًا من ماء حي.

الرسالة التربوية والنفسية:

· دواء آخر للكبر والعجب: ليس أصلك الأول فقط من طين، بل حتى أقرب الناس إليك) ابنك (لم تخلقه بقوتك، بل جُعل من ماء مهين .تذكر هذا كلما اغتررت بنفسك أو حسبك أو نسبك .كل البشر سواسية في هذا الأصل الوضيع، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.
· التذكير بنعمة الستر: تأمل كيف أن الله ستر هذا الأصل المهين .لو أن الإنسان كلما نظر إلى آخر تذكر أنه كان "ماء مهين"، لانكسرت شوكة الكبر تمامًا .ولكن الله بحكمته جعل أصل الخلقة في مكان مستور، وجعل خروج الولد في صورة جميلة محبوبة، حتى تستمر الحياة بالرحمة والمودة.
ثانياً: الدروس والتطبيقات العملية من الآية الثامنة

الدرس الأول: قمة التواضع أمام الله
في لحظات العجب بالنفس، أو عندما ترى من هو أقل منك مالا ً أو جاهًا فتحتقره، تذكر هذه الآية. أنت وذلك الفقير سواء في أصل النشأة: من ماء مهين. هذا الشعور يجعل قلبك يمتلئ رحمة وتواضعًا للخلق.

الدرس الثاني: رد الشبهات حول نظرية التطور
هذه الآية من أقوى الأدلة على بطلان نظرية التطور العشوائي التي تزعم أن الإنسان تطور من قردة عبر ملايين السنين. الآية تقطع بأن خلق الإنسان كان بداية مستقلة (من طين) وبطريقة تدريجية منظمة (سلالة من ماء مهين). لا مجال للعشوائية، بل هو تدبير محكم من {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}.

الدرس الثالث: قيمة الإنسان ليست في أصله بل في عمله
إذا كان أصلك من ماء مهين، فلماذا يفخر الناس بالأنساب والأحساب؟ هذه الآية توجهك إلى أن

قيمتك الحقيقية ليست فيما مضى من أصلك، بل فيما تعمله أنت في حياتك. "إن أكرمكم عند الله أتقاكم". ركز على تقوية إيمانك وأخلاقك وعملك، فهذا هو ميزان التفاضل الحقيقي.
الأمر الرابع: تفسير الآية التاسعة (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ...)

أولا ً: التحليل البياني والبلاغي

.1"ثُمَّ سَوَّاهُ" .. إتمام الخلق والتعديل

· "ثُمَّ": لترتيب المراحل .بعد أن كان ماء مهينًا، جاء دور التسوية.
· "سَوَّاهُ": عدّله وقوّم أعضاءه، جعله سويًا معتدل القامة، متناسق الأطراف .لم يخلقه مشوهًا ولا ناقصًا ، بل في أحسن تقويم.
· اللمسة العلمية: التسوية تشمل الأطوار الجنينية كلها: نطفة، علقة، مضغة، عظام، لحم، ثم النشء خلقًا آخر .كلها مراحل تسوية محكمة في ظلمات الأرحام.

.2"وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ" .. سر الكرامة الإنسانية والعقل

· "نَفَخَ": النفخ هو إدخال الروح في الجسد، إحياؤه بعد أن كان جمادًا .صورة النفخ توحي بالعناية و القرب.
· "مِن رُّوحِهِ": هذه هي الآية الكبرى في هذا المقطع.
· "مِن": للتبعيض .الروح جزء من أمر الله، أضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا .ليست الروح من ذات الله) تعالى الله عن ذلك(، بل هي من خلقه، ولكن الإضافة) روحه (للتشريف .كما تقول: "بيت الله"، "ناقة الله".
· "الرُّوح": هي سر الحياة، والعقل، والإدراك، والتمييز .بهذه النفخة صار الطين والماء المهين إنسانًا، كائنًا مكرمًا، مسؤولا ً، مخاطبًا من الله.

الرسالة النفسية والعقدية:

· تكريم الإنسان: هذه النفخة الإلهية هي سبب كرامتك أيها الإنسان .لا تنظر إلى جسدك الطيني أو أصلك المائي المهين، بل انظر إلى الروح التي بين جنبيك، إنها من نفخة الله .هذا الشعور يمنحك عزة لا تضاهى، عزة نابعة من كونك حاملا ً لسر إلهي.
· سر المسؤولية: بما أن فيك من روح الله، فأنت مستخلف في الأرض، ومسؤول عن أمانة كبرى عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان.

.3"وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ" .. تعداد النعم وترتيبها الدقيق

· "وَجَعَلَ لَكُمُ": خطاب مباشر للبشر جميعًا ."لكم" تفيد الامتنان والتذكير بالنعمة.
· ترتيب الحواس:
· "السَّمْعَ": قدم السمع على البصر .العلم الحديث يثبت أن حاسة السمع تتكون في الجنين قبل البصر، وأنها تعمل حتى في الظلام، وهي باب الهداية الأول) لأن القرآن يُسمع قبل أن يُقرأ.(
· "الْأَبْصَارَ": جمع بصر، لأن الإبصار له مداخلات متعددة.
· "الْأَفْئِدَةَ": جمع فؤاد، وهو العقل والقلب معًا، مركز الفهم والإدراك والعواطف.
· لماذا ختم بالأفئدة؟ لأن السمع والبصر وسيلتان، أما الفؤاد فهو المستقبل والمحلل .إنه الملك في مملكة الجسد .به يعقل الإنسان ما يسمع ويرى، وبه يهتدي أو يضل.

.4"قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ" .. ختام بالتقريع والحث على الشكر

· "قَلِيلًا": خبر مقدم يفيد ندرة الشكر من البشر.
· "مَّا": زائدة للتوكيد.
· "تَشْكُرُونَ": فعل مضارع يدل على استمرار التقصير .أي: أنتم دائمًا في تقصير تجاه شكر هذه النعم العظيمة.

الرسالة التربوية:
هذا الختام يدفعك إلى مراجعة النفس. هل أنت من القليل الذين يشكرون، أم من الكثير الذين يكفرون؟ الآية تحملك مسؤولية تحويل التقصير إلى وفاء.
ثانياً: الدروس والتطبيقات العملية من الآية التاسعة

الدرس الأول: كرامة النفس المؤمنة (ونفخ فيه من روحه)
أيها المؤمن، أنت تحمل نفخة من روح الله. هذه هي هويتك الحقيقية. في زمن يحاول فيه الإعلام والثقافة المادية أن يحوّلوك إلى مستهلك أو رقم أو آلة، تذكر أنك إنسان، فيك سر إلهي. هذه القيمة تمنعك من بيع كرامتك، أو السقوط في الرذائل، أو الاستعباد للشهوات. أنت أكبر من كل هذا.

مثال واقعي:
شاب يعمل في بيئة يكثر فيها السباب والكذب والغيبة. يضغط عليه زملاؤه ليكون مثلهم. إن تذكر أن فيه من روح الله، استنكف أن يدنس هذه الروح بالقبائح، وصمد أمام الضغوط، لأنه يحمل أمانة السماء في أرض الطين.

الدرس الثاني: شكر النعم بالاستعمال في الطاعة
{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ}. كيف تشكر هذه النعم؟

· السمع: استعمله في سماع القرآن، العلم النافع، كلام الخير .لا تستعمله في الغيبة والنميمة والغناء المحرم .شكر السمع يعني أن تغض بصر سمعك عن الحرام.
· البصر: استعمله في قراءة كتاب الله، التفكر في الكون، رؤية آيات الله .لا تستعمله في النظر إلى المحرمات .شكر البصر يعني أن تصرفه عما يغضب الله.
· الفؤاد) العقل والقلب(: استعمله في التفكر في آلاء الله، في محبة الله ورسوله، في إخلاص النية .لا تستعمله في تدبير المكائد والحقد .شكر الفؤاد يعني أن يكون وعاءً للإيمان.

الدرس الثالث: قليلًا ما تشكرون .. فلنكن من القليل!
أغلب الناس غافلون عن نعم الله، لا يشكرون إلا قليلا ً. الآية تحثك أن تكون من القلة الشاكرة. كيف؟

· ورد يومي للشكر: قبل النوم، عدّ نعم الله عليك: سمعي سليم، بصري يعمل، قلبي ينبض، عقلي يدرك .احمد الله على كل نعمة.
· سجدة الشكر: كلما تذكرت نعمة، اسجد لله سجدة شكر .هذه السجدة ترجمة عملية للآية.
· شكر الناس: من لا يشكر الناس لا يشكر الله .عبر عن شكرك لكل من أسدى إليك معروفًا.

خاتمة جامعة: كيف تخرج من الآيات الثلاث بقلب خاشع وحياة شاكرة؟

بعد هذه الرحلة العجيبة مع خلق الإنسان، من الطين إلى الماء المهين إلى النفخة الربانية، إلى نعم السمع والبصر والفؤاد... ماذا بقي؟

.1التوازن بين الذل والعزة:
أنت مزدوج الأصل: جسدك من طين وماء مهين، وهذا يوجب عليك التواضع والذل لله .وروحك من نفخة الله، وهذا يوجب عليك العزة بالإيمان والترفع عن الدنايا .لا تكن متكبرًا فتهلك، ولا تكن ذليلا ً لغير الله فتهان .كن عبدًا عزيزًا لله.
.2التدبر في النفس:
اجعل لك كل يوم لحظات تتأمل فيها خلق نفسك .انظر إلى يدك، كيف تعمل؟ انظر إلى عينك، كيف تبصر؟ واسأل نفسك: من سوى هذا كله؟ إنه} الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ .{هذا التأمل يزيدك إيمانًا ويقينًا.
.3حمل أمانة الشكر:
لا تكن من} قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .{كن من القلة الشاكرة .ابدأ يومك بشكر الله على أن ردّ إليك روحك بعد النوم، وعلى أن أبقى لك سمعك وبصرك وفؤادك .هذا الشكر يحفظ النعم ويزيدها:} لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ.{
.4الاستعداد للقاء الله:
الروح التي فيك هي وديعة من الله، وسترد إليه} .ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .{تذكر أن هذه الجوارح) السمع والبصر والفؤاد (ستشهد عليك يوم القيامة .استعملها اليوم فيما يرضي الله، لتكون لك شفيعة لا خصيمة.

أسأل الله العظيم، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، أن يجعلنا من الشاكرين، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يرزقنا العزة بطاعته والتواضع لعباده.

القسم الثاني
المبحث الأول

أيها المتدبر، يا من أبصرت عظمة الله في الآفاق من خلال خلق السماوات والأرض، ثم أبصرت عظمته في نفسك من خلال أطوار الخلق من طين وماء مهين ونفخة الروح ...ها أنت الآن أمام عقبة كبرى في طريق الإيمان، عقبة طالما عثر فيها المكذبون عبر العصور .إنها عقبة الإيمان بالآخرة، الإيمان بأن هذه الحياة ليست النهاية، وأن هناك لقاءً مع الله وحسابًا وجزاءً.

بعد أن عرض الله عليك دلائل قدرته في الخلق الأول، يأتي ليكشف لك عن منطق المنكرين، وعن جذور كفرهم، ليرد عليهم بمنطق العقل والوحي معًا .تعال نعيش مع قوله تعالى:

}وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ] {(10) السجدة:[10

تمهيد: الربط بين آيات الخلق وآية البعث

تأمل معي هذا التسلسل المنطقي العجيب في السورة:

· في الآيات4) -(6: عرض الله خلق السماوات والأرض، وتدبيره للأمر، وعلمه المطلق.
· في الآيات7) -(9: عرض الله خلق الإنسان بأطواره الدقيقة المدهشة.

ثم يأتي بعد ذلك مباشرة قول الكافرين:} أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.{

السؤال المنطقي:
إذا كان الله قد خلق السماوات والأرض من العدم، وإذا كان قد بدأ خلق الإنسان من طين ثم من نطفة مهينة، أفيعجز عن إعادته بعد موته؟!

الربط هنا في غاية القوة: دليل الإعادة قائم على دليل الابتداء .من قدر على الخلق الأول، فهو على ا لإعادة أقدر .وكأن الآية تقول: "كيف تنكرون البعث، وأنتم تعترفون بالخلق الأول؟!"

اللمسة النفسية:
هذا الانتقال يجعل القارئ في حالة استنكار عقلية لمنطق الكافرين .قبل أن تسمع رد الله عليهم، تجد نفسك تلقائيًا ترد عليهم: "كيف تقولون هذا وقد أخبركم الله أنه خلقكم أول مرة؟!".
أولا ً: تفسير الجزء الأول من الآية) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(

.1"وَقَالُوا" .. عودة إلى حكاية أقوال المكذبين

· "قَالُوا": فعل ماضٍ يفيد تحقق القول ووقوعه .وضمير الجمع "الواو" يعود إلى المشركين والكافرين الذين تقدم ذكرهم في قوله:} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ.{
· اللمسة البيانية:
جاء الفعل بصيغة الماضي للإشارة إلى أن هذه المقولة قديمة متكررة، وليست وليدة اللحظة .إنها شبهة أزلية في تاريخ البشرية، كل أمة كذبت بالبعث كررت هذه العبارة.

.2"أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ" .. صورة حسية لتحلل الجسد

· "أَإِذَا": الهمزة للاستفهام الاستنكاري التعجبي .كأنهم يقولون: "أحقًا إذا متنا وتحللت أجسادنا ...نبعث؟! هذا غير معقول!" .فيها تهكم وسخرية واستبعاد.
· "ضَلَلْنَا": من مادة "ض ل ل" التي تدل على الغياب والخفاء والتلاشي .يقال: ضل الماء في اللبن) إذا اختلط وغاب فيه .(ويقال: ضل الطريق) إذا غاب عنه وتاه .(فمعنى} ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ {أي: فنينا وتلا شينا واختلطت أجسادنا بتراب الأرض فلم نعد شيئًا متميزًا.
· اللمسة البلاغية:
اختيار لفظ "ضَلَلْنَا" بدل "متنا" أو "فنينا" له دلالة تصويرية عجيبة .إنه يرسم صورة التحلل المطلق والتشتت الكامل للذرات البشرية في باطن الأرض، بحيث لا يبقى أثر يدل على صاحبها .إنها صورة توحي باليأس المطلق من إمكانية العودة.
· "فِي الْأَرْضِ": ظرف مكان يشير إلى القبر وباطن التراب حيث تتفرق الأجزاء وتختلط بذرات الرمل.

.3"أإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" .. تأكيد الاستبعاد بمؤكدات

· "أإِنَّا": تكرار همزة الاستفهام يفيد التعجب الشديد .همزة ثانية لزيادة الاستنكار.
· "إِنَّا": حرف توكيد، و"نا" ضمير المتكلمين .كأنهم يقولون: "نحن بالذات، بعد هذا الفناء، نُخلق خلقًا جديدًا؟!".
· "لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ": اللام لام الابتداء للتوكيد، والجملة في محل رفع خبر "إن" .أي: "إننا لكائنون في خلق جديد" .وهم يتهكمون بذكر الخلق الجديد، ويستبعدونه كل الاستبعاد.

الرسالة العقلية والنفسية:
هذه الجملة بكل مؤكداتها) إنّ، لام الابتداء (وهي في سياق الاستفهام الإنكاري، تكشف عن غفلة عقلية عميقة .إنهم يقيسون قدرة الله على قدرتهم البشرية المحدودة .لأنهم هم يعجزون عن إعادة الجسد المتحلل، ظنوا أن الله يعجز أيضًا! إنه قياس فاسد، ينم عن عدم تعظيم لله، وعن جهل بصفات الخالق .وهذا ما سنراه في الرد الإلهي.

درس عملي:
كثير من الناس اليوم، وهم يرون تقدم العلم، يقعون في نفس الفخ .يقولون: "كيف نبعث وقد صرنا ترابًا؟ العلم أثبت أن الذرات لا تفنى ولكن تتحول، فكيف نعود نحن بأعياننا؟" .هذا السؤال ناتج عن قياس الخلق الجديد على الخلق البشري أو الصناعة البشرية .أما الخلق الإلهي فهو "كن فيكون" .الله لا يحتاج إلى جمع الذرات وتصنيفها كما نفعل، بل يعيدنا بقدرته التي لا تعجزه ذرة في الأرض.
ثانياً: تفسير الجزء الثاني من الآية) بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ(

.1"بَلْ" .. الإضراب الإبطالي

· "بَلْ" هنا هي حرف الإضراب الإبطالي .إنها تنسف ما قبلها نسفًا، وتثبت ضده .كأن الله يقول: "دع عنك ما قالوه من استبعاد وتهكم، فالمشكلة ليست في عقولهم التي تستبعد البعث، بل المشكلة الحقيقية هي في قلوبهم التي تكفر بلقاء ربهم".
· اللمسة النفسية:
"بل" تنقلنا من سطحية الشبهة العقلية إلى عمق العلة القلبية .إنها تكشف أن إنكار البعث ليس قضية دليل، بل قضية هوى وإرادة .هم لا يريدون أن يبعثوا، لأنهم لا يريدون أن يلقوا ربهم فيحاسبهم على معاصيهم.

.2"هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" .. التشخيص الحقيقي للداء

· "هُم": ضمير منفصل يفيد الحصر والتوكيد .أي: هم بأنفسهم، بذواتهم، وليس بمجرد أقوالهم، كافرون بلقاء الله.
· "بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ":
· "اللِّقَاء": مصدر بمعنى المقابلة والحضور .وهو هنا لقاء الجزاء والحساب يوم القيامة.
· "رَبِّهِمْ": إضافة الرب إلى ضميرهم فيها معنيان:
1. تذكير بالنعمة: هو ربهم الذي خلقهم ورزقهم، فكيف يكفرون بلقائه وهو الذي أنعم عليهم؟!
2. تذكير بالمسؤولية: الربوبية تقتضي الطاعة والعبودية، فكيف ينكرون اللقاء الذي فيه يُسألون عن هذه العبودية؟!
· "كَافِرُونَ": اسم فاعل يفيد الثبات والاستمرار .أي أن الكفر بلقاء الله صار صفة لازمة لهم، وليس مجرد موقف عابر.

اللمسة البيانية والبلاغية العظيمة:
لاحظ كيف رد الله على قولهم:

· هم قالوا:} أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) {ركزوا على المادة: الجسد والتراب.(
· فرد الله:} بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) {ركز على المعنى: العلاقة بالله.(

كأنه يقول: "قضيتكم ليست في التراب وكيفية جمعه، بل في القلب الذي يهرب من لقاء ربه خوفًا من الحساب".
ثالثاً: الدروس والتطبيقات العملية من الآية العاشرة

الدرس الأول: أصل كل معصية هو الغفلة عن لقاء الله

هذه الآية تضع يدك على جذر المشكلة في حياة الإنسان .لماذا يعصي الإنسان ربه؟ لماذا يتجرأ على المحرمات؟ لماذا يقصر في الطاعات؟

الجواب: لأنه نسي أنه سيلقى ربه.

· مثال واقعي:
موظف يعلم أن مديره لن يراه اليوم، فيهمل في عمله .لكنه عندما يعلم أن المدير قادم للتفتيش، يتحول إلى شخص آخر، يجتهد ويتقن .الفرق هو استحضار اللقاء.
كذلك المؤمن، عندما يستحضر أنه سيلقى ربه، يستقيم على الطاعة .قال تعالى:} يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ] {الانشقاق:.[6

التطبيق العملي:
قبل أن تقدم على أي فعل، كبير أو صغير، توقف واسأل نفسك: "إن كنت سألقى الله غدًا، فهل يليق بي أن أفعل هذا الفعل؟" .هذه الوقفة البسيطة كفيلة بأن تمنعك عن كثير من المعاصي، وتدفعك إلى كثير من الطاعات.

الدرس الثاني: اليقين بالبعث يحرر الإنسان من الخوف من الموت

الذين قالوا:} أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ {كانوا يخافون الفناء المطلق .إنهم يرون الموت نهاية كل شيء، ولذلك يتشبثون بالحياة الدنيا بكل ما أوتوا من قوة، ويخافون الموت خوفًا شديدًا.

أما المؤمن، فإنه يعلم أن الموت بداية لحياة أبدية، ولقاء مع الله .هذا اليقين يحرره من الرعب من الموت، ويجعله يعيش حياة متوازنة: يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.

مثال واقعي:
مريض مؤمن قيل له إن حالته خطيرة .تجده مطمئنًا، يقول: "الحمد لله، سألقى ربي، وأرجو رحمته" . بينما آخر منكر للآخرة يصاب بانهيار عصبي وهلع، لأنه يرى أن حياته تنتهي إلى العدم .الإيمان بالبعث يمنح الإنسان طمأنينة نفسية لا توصف.

الدرس الثالث: الرد على المنكرين بالمنطق القرآني

قد تواجه في حياتك من يسخر من فكرة البعث، أو يطرح شبهات مثل: "كيف نبعث وقد تحللنا؟".

المنهج القرآني في الرد:

.1لا تدخل في جدال حول "كيفية" البعث .إنها مسألة غيبية، والقدرة الإلهية فوق التصور البشري.
.2أرجعهم إلى أصل الخلق .قل لهم كما علمنا القرآن: "كيف تنكرون الإعادة، وأنتم مقرون بالبداية؟! الذي خلقكم من طين وماء مهين قادر على أن يعيدكم" .هذا هو الدليل العقلي الذي لا يُرد.
.3انقل النقاش من العقل إلى القلب .قل لهم: "المشكلة ليست في عقولكم، بل في قلوبكم التي لا تريد لقاء الله خوفًا من الحساب" .هذا الأسلوب يحرج المنكر ويجعله يراجع نفسه.

الدرس الرابع: شكر نعمة الإيمان باليوم الآخر

أنت أيها المؤمن، قد منّ الله عليك بالإيمان بلقائه .هذه نعمة لا تقدر بثمن .كثير من الناس في الماضي والحاضر} بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .{اشكر الله على هذه النعمة بأن تستعد لهذا اللقاء.

كيف تستعد للقاء الله؟

· بالتوبة النصوح: لا تؤجل التوبة، فاللقاء قد يكون أقرب مما تتصور.
· بإخلاص العمل: اجعل كل عمل تؤديه خالصًا لوجه الله، تبتغي به لقاءه.
· بمحبة الله ورسوله: فاللقاء الحقيقي هو لقاء المحبة والشوق، لا لقاء الخوف والفزع.
رابعاً: اللمسات البيانية والبلاغية الشاملة في الآية

· التضاد بين "ضللنا" و"لقاء":

هم يرون أنفسهم ضائعين تائهين في التراب، والله يثبت أنهم سيلقونه لقاءً حقيقيًا واضحًا .إنه تضاد بين الغيبوبة المادية واليقظة الأخروية.
· الاستفهام الإنكاري مقابل الجملة الخبرية:
قولهم:} أَإِذَا ضَلَلْنَا ...أَإِنَّا {...مبني على الاستفهام والشك والاضطراب.
رد الله:} بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ {جملة خبرية ثابتة لا شك فيها .هذا الانتقال من اضطراب الشك إلى ثبات الحقيقة يعكس الفرق بين الظن البشري والعلم الإلهي.
· اختيار "لقاء" دون غيرها:
لم يقل: "بل هم بالبعث كافرون"، ولا "بل هم بالحساب كافرون"، بل قال:} بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ .{لماذا؟
لأن كلمة "اللقاء" فيها معنى المواجهة المباشرة، وفيها معنى الرؤية والقرب .إنها تذكرهم بأنهم لن يواجهوا مخلوقًا، بل سيواجهون ربهم الذي خلقهم .هذا المشهد وحده كافٍ لردع المؤمن عن المعصية، ولإفحام الكافر في جداله.
خامسًا: كيف تخرج من الآية بقلب موقن بلقاء الله؟

.1تصحيح النية:
من الآن فصاعدًا، اجعل لقاء الله هو بوصلتك .عندما تصلي، قل في سرك: "أنا أقف بين يدي ربي الآن، وسألقاه في الآخرة" .هذا الشعور يحول الصلاة من عادة إلى لقاء مصغر.
.2تربية الأولاد على الإيمان بالآخرة:
لا تربي أولادك على أن النجاح هو الوظيفة والمال فقط .ربهم على أن النجاح الحقيقي هو الفوز بلقاء الله .احكِ لهم عن الجنة، وعن رؤية الله فيها، حتى يشتاقوا إلى ذلك اللقاء، فيعملوا له.
.3مواجهة وساوس الشيطان:
عندما يوسوس لك الشيطان بأنك لن تموت الآن، وأن هناك متسعًا من الوقت للتوبة، قل له:} بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .{أنا لست منهم، أنا مؤمن باللقاء، فلا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.
خاتمة: رسالة من ربك إليك

أيها الإنسان، أيها المخلوق من طين وماء مهين، أيها الحامل لنفخة الروح، لا تكن من الغافلين الذين يقولون:} أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ {استهزاءً وكفرًا.

بل كن من المؤمنين الموقنين بأن لقاء الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

إن هذا اليقين هو وقود الروح في مسيرتها إلى الله .إنه الذي يجعل المصيبة هينة، والطاعة حلوة، و الموت أمنية للقاء الحبيب.

اجعل هذه الآية زادك اليومي .رددها كلما شعرت بقسوة في قلبك:} بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .{ثم اسأل نفسك: "هل أنا منهم؟" .ثم اسأل الله أن يعيذك من ذلك، وأن يرزقك الشوق إلى لقائه، وحسن ا لاستعداد له.
المبحث الثاني

أيها المتدبر، يا من طالعت في الآيات السابقة عظمة الخلق الأول، ويا من سمعت إنكار المكذبين للبعث ورد الله عليهم بأن العلة الحقيقية هي كفرهم بلقاء ربهم... ها أنت الآن أمام الحقيقة التي لا مفر منها، الحقيقة التي يهرب منها الغافلون، ويتزود لها الصالحون. إنها حقيقة الموت، تلك اللحظة الفاصلة التي تنتظر كل حي، والتي بعدها يكون اللقاء الأكبر مع الله.

بعد أن قال تعالى عن الكافرين: {بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}، يأتي الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بما هو بداية هذا اللقاء، إنها لحظة التوفي، لحظة قبض الروح على يد ملك الموت.

تعال نعيش مع قوله تعالى:
{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)} [السجدة: 11]
تمهيد: الربط بين إنكار البعث وحقيقة الموت

في الآية السابقة، قال المكذبون: {أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}. هم ينكرون القيامة الكبرى، وينسون أن قبلها قيامة صغرى لا يختلف فيها اثنان، وهي الموت. كأن الله يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: "قبل أن تسألوا عن البعث مستبعدين، انظروا إلى الموت الذي هو آتيكم لا محالة. سيأتيكم ملك الموت ليقبض أرواحكم، وبعدها ستعرفون أن البعث حق".

هذا الانتقال من الجدل النظري عن البعث إلى الحقيقة الملموسة للموت هو غاية في الحكمة التربوية. إنه ينقل المعركة من أرض الجدل العقلي إلى أرض المواجهة الوجدانية. عندما يتذكر الإنسان أنه سيموت، يتغير كل شيء في طريقة تفكيره وحياته.

اللمسة النفسية:
ذكر الموت هو صدمة إيجابية للقلب الغافل. إنه يزلزل الكيان، ويدفع الإنسان إلى السؤال الكبير: "وماذا بعد؟". والآية تجيب فورًا: {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}.
أولا ً: تفسير قوله تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ)

1."قُلْ" .. الأمر الإلهي بالبلاغ المبين

· "قُلْ": أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب هؤلاء المكذبين بهذه الحقيقة .إنها كلمة حق لا بد أن تقال، ولو كانت ثقيلة على السامعين.
· الرسالة التربوية لنا:
أنت أيها المؤمن مأمور بأن تذكر الناس بالموت .ليس تخويفًا فحسب، بل تذكيرًا برحمة الله وحكمته .إنه من النصح والإرشاد .لا تكن ممن يتجنب ذكر الموت خوفًا من كدر الناس، بل كن ناصحًا أمينًا ."أكثروا من ذكر هادم اللذات".

2."يَتَوَفَّاكُم" .. معنى التوفي الكامل

· "يَتَوَفَّى": من مادة "و ف ي" التي تدل على الأخذ كاملا ً غير منقوص .يقال: توفيت حقي، أي أخذته وافيًا تامًا .فمعنى} يَتَوَفَّاكُم {أي: يقبض أرواحكم كاملة، ويستوفي آجالكم، لا يترك أحدًا ولا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها.
· اللمسة البيانية:
لم يقل: "يميتكم" فقط، بل قال "يتوفاكم" .الموت هو زهوق الروح، أما التوفي فهو القبض والحفظ والإمساك .إن فيه إشارة إلى أن الموت ليس فناءً ولا ضلالا ً في الأرض كما زعموا، بل هو انتقال من دار إلى دار، حيث تقبض الروح كاملة لتعود إلى بارئها.
· الرسالة العقدية:
الموت عند المؤمن ليس نهاية، بل استيفاء الأجل الذي قدره الله .والروح لا تفنى، بل تُتوفى، أي تؤخذ إلى عالم آخر .وهذا ينسف زعمهم بأنهم} ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ {أي تلاشينا تمامًا .بل أنتم أيها الموتى في قبضة الله، أرواحكم محفوظة عنده.

3."مَّلَكُ الْمَوْتِ" .. الموكل بقبض الأرواح

· "مَّلَكُ": هو المَلَك) بتخفيف اللام(، وهو مخلوق عظيم من ملائكة الله، خلقه الله لهذه المهمة الجليلة . ورد في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل.
· "الْمَوْتِ": مضاف إليه، يبين مهمته ووظيفته .إنه ملك مختص بالموت، لا يشغله شيء عن مهمته التي وكل بها.
· اللمسة التربوية:
تخيل هذا المشهد: ملك من ملائكة الله، لا يعصي الله ما أمره، موكل بك أنت شخصيًا، مهمته الوحيدة أن يأتيك في يومك المعلوم ليقبض روحك .لا ينسى، لا يغفل، لا يتأخر، لا يستعجل .إنه مرتبط بك منذ أن كنت جنينًا في بطن أمك، ينتظر الأمر الإلهي: "اقبض روح فلان بن فلان".

التطبيق العملي في حياتنا:
عندما تستشعر أن هناك ملكًا موكلًا بك، ينتظر لحظة أجلك، فإن هذا يجعلك تعيش في حالة استعداد دائم. لا تقول: "سأتوب غدًا"، لأنك لا تدري متى يأمر الله ملك الموت بك. هذا الاستشعار هو وقود الطاعة ومانع المعصية.

4."الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ" .. تأكيد المهمة المحددة

· "وُكِّلَ": أي أوكل إليه الأمر وجعل وكيلا ً عليه .وهو مبني للمجهول، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى .أي: الذي وكله الله بكم.
· "بِكُمْ": جار ومجرور يفيد الاختصاص .مهمته ليست عامة فقط، بل هو موكل بكم أنتم أيها البشر المخاطبون .كل واحد منا له ملف خاص عند ملك الموت، ويعلم متى يُفتح هذا الملف.

الدرس العملي:
هذا التفصيل (الذي وكل بكم) يجعل المسألة شخصية جدًا. الموت ليس حادثة عامة تصيب الناس، بل هو موعد شخصي بينك وبين ملك الموت الذي ينتظر الإذن من الله بك. هذا الشعور ينزع الغفلة من القلب.
ثانيا: تفسير قوله تعالى (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

1."ثُمَّ" .. الترتيب والتراخي

· "ثُمَّ": حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي الزمني .بعد أن يتوفاكم ملك الموت، تنتقلون إلى حياة البرزخ، وتقيمون فيه زمنًا، ثم بعد ذلك ترجعون إلى ربكم يوم القيامة.

2."إِلَىٰ رَبِّكُمْ" .. الوجهة النهائية

· "إِلَىٰ": حرف جر يدل على انتهاء الغاية .المسير كله من الدنيا إلى القبر إلى البرزخ إلى البعث ... غايته النهائية إلى الله.
· "رَبِّكُمْ": إضافة الرب إليهم) كما في الآية السابقة (فيها معانٍ عظيمة:
· التذكير بالرحمة والتربية: هو ربكم الذي رباكم بنعمه، فكيف تلقونه وأنتم كافرون بها؟
· التذكير بالمسؤولية: الربوبية تقتضي العبودية .أنتم عبيده، وسيرجع العبد إلى سيده ليسأله عما فعل.

3."تُرْجَعُونَ" .. الحتمية والجزم

· "تُرْجَعُونَ": فعل مضارع مبني للمجهول، مرفوع بثبوت النون .وهو يفيد الحتمية والجزم .لا مهرب من هذا الرجوع .كل نفس سترجع إلى ربها.
· اللمسة البيانية:
لم يقل: "ثم إلى ربكم تصيرون"، بل قال "ترجعون" .الرجوع يقتضي بداية انطلقتم منها .وهذه إشارة إلى الميثاق الأول في عالم الذر، حين قال الله:} أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ{ [الأعراف: 172]. نحن راجعون إلى من بدأنا منه.

الرسالة العقدية والنفسية:
الجملة {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} هي جواب السؤال الوجودي الكبير: لماذا نحن هنا؟ وإلى أين نمضي؟ الجواب: إلى الله. هذا اليقين يمنح الحياة معنى وهدفًا. لا تكون الحياة عبثًا، بل هي رحلة عودة إلى الوطن الأصلي، إلى لقاء الرب.
ثالثا: الدروس والتطبيقات العملية من الآية (كيف نعيشها ونطبقها في حياتنا؟)

الدرس الأول: الاستعداد للموت قبل نزوله

هذه الآية نداء استعداد لا نداء خوف. ملك الموت موكل بك، فماذا أعددت للقائه؟

· التطبيق العملي اليومي:
كل ليلة قبل أن تنام، قل في نفسك: "اللهم إن ملك الموت موكل بي، فإن قبضت روحي في منامي فاغفر لي، وإن أحييتني فاحفظني" .هذا الدعاء البسيط يجعلك تعيش في حالة وصية يومية.
· مثال واقعي:
رجل أعمال يبدأ يومه بتلاوة هذه الآية .يقول: "أنا لا أعلم إن كنت سأعود إلى بيتي مساءً أم لا . لذلك أحرص على ألا أظلم أحدًا في تجارتي، وأصلي الفجر في وقته، وأتصدق كل يوم بشيء ولو قليل" .هذا هو تحويل المعرفة إلى سلوك.

الدرس الثاني: تحويل الخوف من الموت إلى شوق للقاء الله

الكفار يخافون الموت لأنه فناء في نظرهم. أما المؤمن فيراه رجوعًا إلى الرب. الفرق شاسع.

· كيف نطبق هذا في مشاعرنا؟
· عندما تمرض، أو ترى مريضًا، لا تقل: "أخاف الموت"، بل قل: "أشتاق إلى لقاء ربي، وأسأله حسن الخاتمة" .هذا التحول في اللغة الداخلية يغير الحالة النفسية من قلق إلى طمأنينة.
· مثال: عجوز مؤمنة في مرض الموت، تبتسم وتقول لأولادها: "لا تبكوا، أنا ذاهبة إلى ربي الذي

أحببته، وأرجو رحمته" .هذا الشعور ناتج عن يقينها بأن} إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.{

الدرس الثالث: القضاء على التسويف في التوبة

أخطر أسلحة الشيطان التسويف: "أنت صغير، توب بعدين، لما تكبر، لما تحج، لما يتزوج أولادك...". هذه الآية تقتل التسويف.

· التطبيق العملي:
· إذا قارف أحدنا ذنبًا، فليقل لنفسه فورًا: "ملك الموت موكل بي، وقد يأتيني الآن .لا أضمن أن أعيش إلى الليل .أتوب الآن".
· مثال: شاب يشاهد محرمًا على هاتفه .يتذكر} يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ{، فيقفز من مكانه ويغلق الهاتف ويقول: "اللّهم إني تبت إليك، لا أضمن أن أقبض وأنا على هذه الحال" .هذه هي ثمرة استحضار الآية في لحظة الصراع مع النفس.

الدرس الرابع: تعزية النفس عند فقد الأحبة

عندما يموت عزيز علينا، نحزن لفقدهم. لكن هذه الآية تقدم تعزية سماوية:

· الحبيب لم يفنَ، بل توفاه ملك الموت، وهو الآن في ضيافة اللّه، وسيرجع إلى ربه .هذا الفهم يخفف وقع المصيبة.
· التطبيق: عند دفن ميت، استشعر وأنت تقرأ الدعاء أن روحه تعرج إلى اللّه، وأنه في قبضة ملك كريم، ليس ضائعًا في التراب.

الدرس الخامس: التربية على مراقبة اللّه في الخلوة

إذا أيقنت أن ملك الموت موكل بك، فهو يراك دائمًا. بل إن ملائكة آخرين يكتبون أعمالك. هذا الا ستشعار يجعل المؤمن يراقب اللّه في سره وعلانيته.

· مثال واقعي:
فتاة في غرفتها، تغلق الباب، وترفع صوت الموسيقى .تتذكر فجأة: "ملك الموت موكل بي، فهل يرضى اللّه عني الآن؟" .فتطفئ الموسيقى وتستغفر .هذا هو واقع الإيمان الذي تحييه الآية في القلوب.
رابعاً: كيف نعيش معنى الآية في يومنا وليلتنا؟ (برنامج عملي)

.1ورد الصباح والمساء:
اجعل هذه الآية من أذكارك صباحًا ومساءً. اقرأها بتدبر، وتذكر أن يومك هذا قد يكون آخر يوم في عمرك. هذا لا يعني أن تعيش في كآبة، بل في جد ونشاط وحرص على الطاعة.

.2عند دخول المقابر:
إذا مررت بالمقابر، توقف قليلا ً وقل: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون. توفاكم ملك الموت الذي وكل بكم، وترجعون إلى ربكم". هذا يجعلك تخرج من المقبرة بروح جديدة متصلة بالآخرة.

.3قبل النوم:
النوم هو الموتة الصغرى. قبل أن تغمض عينيك، قل: "باسمك اللّهم أموت وأحيا". وتذكر أنك لا تدري أتصحو أم لا. اجعل آخر كلامك ذكرًا لله، وآخر فكرة في بالك هي لقاء اللّه.

.4في أوقات الفرح والغفلة:
عندما تضحك مع الأصدقاء وتلهو، تذكر خلسة: {يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ}. لا تجعل هذا يفسد فرحتك، بل اجعله يضبط إطار فرحك، فلا تخرج فيه عن حدود اللّه، وتشكر اللّه الذي أمهلك حتى تفرح بطاعته.
خامساً: خاتمة .. رسالة الآية إلى قلبك

أيها الإنسان، أيها المخلوق من طين، أيها الحامل لنفخة الروح، إن هذه الآية هي جرس إنذار ولكنها أيضًا بشرى رجوع.

· إنذار: بأن الدنيا فانية، وأن ملك الموت على الطريق، فاستعد.
· بشرى: بأن الرجوع إلى الرب، الرحيم الكريم، الذي ينتظر توبة عبده ليفرح بها.

لا تجعل هذه الآية تمر على سمعك مرور الكرام. قف معها طويلا ً. تخيل ملك الموت يأتيك. بأي وجه يأتيك؟ وجه بشرى وسلام، أم وجه عذاب وحساب؟

اختر الآن، في هذه اللحظة، أن تستعد. أن تجعل لقاء الله نصب عينيك. أن تحول كل عمل في يومك إلى زاد للقاء.

المبحث الثالث

أيها المتدبر، يا من أيقنت أن ملك الموت موكل بك، وأن الرجوع إلى الله حق لا مرية فيه... ها أنت الآن تقف على مشارف المشهد الأعظم، المشهد الذي يتمناه كل مؤمن بعينه، ويخشاه كل غافل بقلبه. إنه المشهد الذي طالما أخبر عنه القرآن، وحذر منه الرسل. مشهد الندم الأكبر، والحسرة التي لا تنفع، حين يقف المجرمون بين يدي ربهم، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فينطقون بكلمات لو قالوها في الدنيا لكانت نجاة لهم.

بعد أن أخبر الله تعالى أن الكافرين {بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ}، وبعد أن أمر نبيه أن يذكرهم بأن الموت آتيهم وأنهم إلى الله راجعون، يأتي هنا التصوير الحي لذلك اللقاء الذي كفروا به. تصوير يجعلك ترى بأذنيك، وتسمع بعينيك، وتعيش بقلبك تلك اللحظة العصيبة.

تعال نقف بخشوع أمام قوله تعالى:
{وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12)} [السجدة: 12]
تمهيد: الربط بين آية الرجوع وآية الندم

في الآية السابقة قال تعالى: {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}. هذا الرجوع حقيقة غيبية نؤمن بها. لكن العقل البشري بحاجة إلى صورة تقربه من حقيقة هذا الرجوع. وهنا تأتي هذه الآية لتفتح لك نافذة على الغيب، لترى بعين بصيرتك ما سيكون.

وكأن الله يقول لك: "يا محمد، لو رأيتهم في ذلك الموقف لرأيت العجب العجاب! ولكنهم لم يروه بعد، فبلغهم ما سيكون، لعلهم يرجعون قبل فوات الأوان". هذا هو منهج القرآن: ينقل مشاهد الآخرة إلى الدنيا عبر التصوير الحي، ليوقظ القلوب قبل أن تستيقظ مرغمة يوم لا ينفع الندم.
أولا ً: التصوير البياني الحي للمشهد (رحلة إلى عرصات القيامة)

دعني آخذ بيدك في رحلة تصويرية تعيش فيها كل حرف من حروف الآية:

1."وَلَوْ تَرَىٰ" .. الكاميرا الإلهية تفتح لك باب الغيب

· "لَوْ": حرف امتناع لامتناع .أي: "لو ترى أيها المخاطب هذا المشهد لرأيت أمرًا هائلا ً عظيمًا، ولكنك لا تستطيع رؤيته الآن لأنه في علم الغيب".
· اللمسة التصويرية:
تخيل أن الله يضع يده على عينيك وينقلك عبر الزمن إلى يوم القيامة .إنها كاميرا إلهية تنقلك من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ."لو ترى" تجعلك تتخيل أنك واقف هناك، تنظر إلى المشهد بكل تفاصيله .
إنها دعوة للتخيل الإيماني الحي، وليس مجرد خبر يروى.

2."إِذِ الْمُجْرِمُونَ" .. ظهور طائفة الخاسرين

· "إِذِ": ظرف زمان يشير إلى وقت محدد، وهو وقت العرض على الله، وقت الحساب، وقت لا ينفع فيه الندم.
· "الْمُجْرِمُونَ": اسم فاعل من "أجرم" بمعنى قطع وأذنب واكتسب الإثم .وصفهم بـ "المجرمون" وليس "الكافرون" فقط، ليشير إلى جريرتهم العظيمة في حق أنفسهم وحق ربهم .إنهم المجرمون الذين قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض.
· التصوير الذهني:
أغمض عينيك وتخيل أرض المحشر ...أفواج البشر تساق ...وفجأة يُنادى على "المجرمين" .إنهم فئة

خاصة، عليهم سيماء الخزي والعار .يُعزلون عن سائر الخلق، وتلحق بهم لعنة الله .تخيل حالهم وهم يسمعون هذا الوصف الذي يلاحقهم في عرصات القيامة: "أين المجرمون؟" .يا له من نداء تقشعر منه ا لأبدان!

.3"نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ" .. مشهد الذل والانكسار) الصورة المركزية(

هذه هي اللقطة الأقوى في المشهد كله. دعنا نصورها بكل تفاصيلها:

· "نَاكِسُو": جمع "ناكس"، من النكس وهو قلب الشيء وجعل أعلاه أسفله .إنها حالة انقلاب كامل في الهيئة والكيان.
· "رُءُوسِهِمْ": الرأس هو موضع العزة والرفعة .رفع الرأس دليل الكبرياء، وخفضه دليل الخضوع أو الذل.

التصوير الحي للمشهد:
انظر إليهم وهم يساقون إلى ربهم! في الدنيا، كانوا يمشون شامخين، رافعين رءوسهم كبرًا على الحق، متبخترين في مشيتهم، مستكبرين عن الإيمان. كانوا إذا تليت عليهم آيات الله ولوا مستكبرين كأنهم لم يسمعوها.

أما الآن... انظر إلى هيئتهم! رءوسهم منكوسة إلى الأرض لا يستطيعون رفعها. لماذا؟

· الخزي والعار: يملأ وجوههم، فينظرون إلى الأرض خجلا ً من الله ومن خلق الله.
· الخوف والرعب: قد غشيهم من هول الموقف، فلم يعد فيهم قوة لرفع رءوسهم إلى السماء.
· ثقل الذنوب: كأن على رءوسهم صخورًا من الآثام والأوزار تثقلهم إلى أسفل.
· انقلاب الحال: كانت رءوسهم في الدنيا تعلو كبرًا، فأذلها الله اليوم عقابًا على كبرهم.

تخيل مشهد الإنسان الواقف أمام قاضٍ عادل وقد ثبتت عليه جريمة بشعة. ألا ينكس رأسه حياءً وخوفًا؟ فكيف بمن يقف أمام رب العالمين، وقد فضحه الله على رءوس الأشهاد، وعرضت عليه سيئاته في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة؟!

هذه الصورة يجب أن تطبع في ذهنك كلما أحسست بشيء من الكبر أو العجب. تذكر أن رأسك الذي ترفعه اليوم، سيأتي يوم قد لا تستطيع فيه رفعه من شدة الخزي.

.4"عِندَ رَبِّهِمْ" .. الموقف من الرب

· "عِندَ": ظرف مكان يفيد القرب الشديد .إنهم ليسوا بعيدين عن الله، بل هم تحت قبضته، بين يديه، في موقف الحساب.
· "رَبِّهِمْ": مرة أخرى يذكرهم بأنه ربهم، الذي خلقهم ورزقهم وأمهلهم .هذه الكلمة في هذا الموقف لها وقع الصاعقة .إنها تقول لهم: "هذا هو ربكم الذي كفرتم به، الذي عبدتم غيره، الذي كذبتم رسله .والآن أنتم بين يديه عاجزون".

التصوير الذهني:
تخيل نفسك واقفًا في هذا الموقف، ليس بين يدي ملك ولا رئيس، بل بين يدي رب العالمين. جبروته يملأ الأرجاء، وملائكته صافون، والخلائق كلهم خاضعون، وأنت ناكِس رأسك لا تقوى على النظر إليه. يا له من مشهد يهز الوجدان!

.5"رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا" .. الاعتراف المر

انظر إليهم وقد نكسوا رءوسهم. وفجأة، ينطلق صوتهم من بين الضلوع، من أعماق الحسرة. يخاطبون الله بنداء واحد: {رَبَّنَا}.

· النداء بـ "ربنا": لم يقولوا "يا الله"، ولا "يا رحمن"، بل قالوا "ربنا" .إنه اعتراف ضمني بالربوبية التي أنكروها في الدنيا .في الدنيا قالوا:} وَمَا الرَّحْمَٰنُ{، وقالوا:} أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .{أما الآن، وقد زال الغطاء، فهم يقرون بأنه ربهم.
· "أَبْصَرْنَا": أي أبصرنا الحق الذي كنا ننكره .أبصرنا صدق الرسل، أبصرنا حقيقة البعث، أبصرنا ما كنا نكذب به.
· "وَسَمِعْنَا": أي سمعنا الآن ما كنا نصم عنه آذاننا في الدنيا .سمعنا صيحة الحق، سمعنا شهادة

الجوارح علينا، سمعنا أمر الله الذي عصيناه.

التصوير الصوتي الحركي:
تخيل الصوت! صوتهم منخفض خافت، يخرج من رءوس منكسة، مبحوح بالحسرة والألم. إنه صوت ا لاعتراف المُر الذي لا ينفع صاحبه. لقد كانوا في الدنيا صمًا بكمًا عميًا عن الحق، والآن انفتحت أبصارهم وأسماعهم على أهوال ما كانوا يوعدون. قال تعالى في موضع آخر: {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: 22].

كم منا اليوم يسمع الحق فلا ينتفع بسمعه؟ كم منا يبصر آيات الله فلا يعتبر؟ تذكر أنك تملك هذه الحواس الآن، فانتفع بها قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه بصر ولا سمع إلا من رحم الله.

.6"فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا" .. طلب العودة المستحيلة

· "فَارْجِعْنَا": الفاء للسببية .أي: "بما أننا أبصرنا وسمعنا، وبما أننا تيقنا، فارجعنا إلى الدنيا" .إنه طلب رد الكرة، طلب فرصة ثانية.
· "نَعْمَلْ صَالِحًا": جواب الطلب .يعدون بأنهم سيعملون صالحًا، لا فسادًا ولا إجرامًا.

التصوير العاطفي:
انظر إلى أيديهم وهي ترتفع قليلا ً في خضوع، وهم يرجون الله أن يعيدهم. أعينهم تفيض بالدموع ، وقلوبهم تنفطر حسرة. يريدون أن يصلحوا ما أفسدوا، أن يعمروا ما هدموا، أن يطيعوا بعد أن عصوا.

ولكن... هيهات هيهات! إنه طلب في غير أوانه. لقد أعطاهم الله العمر كله، وأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأمهلهم حتى جاءهم اليقين. أما الآن، فقد فات القطار، وأغلقت أبواب التوبة.

.7"إِنَّا مُوقِنُونَ" .. اليقين الذي لا ينفع

· "إِنَّا": توكيد من أنفسهم.
· "مُوقِنُونَ": أي قد صرنا الآن على يقين كامل لا شك فيه ولا ريب .آمنا بما كنا نكذب، وأيقنا بما كنا نمتري.

المفارقة المؤلمة:
في الدنيا كانوا في ريب وشك، يقولون: {إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [الجاثية: 32]. والله يدعوهم إلى اليقين عبر كتابه {لَا رَيْبَ فِيهِ}، فيأبون. أما الآن، وقد رأوا العذاب بأعينهم، صاروا موقنين. ولكن الله لا يقبل إيمان اليأس. قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} [غافر: 84-85].
ثانياً: الدروس والتطبيقات العملية من الآية (كيف نعيشها في حياتنا؟)

الدرس الأول: مبادرة الزمن قبل فوات الأوان

هذه الآية صرخة تحذير: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد. فغدًا قد لا تملك فرصة العمل. المجرمون طلبوا الرجعة فلم يُستجاب لهم. وأنت الآن في زمن الرجعة الممكنة، فماذا تنتظر؟

· التطبيق العملي:
ضع شعارًا لحياتك: "اليوم عمل بلا حساب، وغدًا حساب بلا عمل" .كل صباح، انظر في المرآة وقل لنفسك: "هذا اليوم هدية من الله .إن ضيعته فقد لا أعوضه .ماذا سأعمل فيه صالحًا؟".
· مثال واقعي:
شخص اعتاد أن يقول: "سأحفظ القرآن عندما أكبر" .يبلغ الأربعين، فيقول: "عندما أتقاعد" .يبلغ الستين، فيضعف بصره وذاكرته، فيندم أنه لم يحفظ في شبابه .لا تكن كهذا! ابدأ الآن} .فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا {قالوها بعد فوات الأوان، فقلها أنت قبل فوات الأوان: "رب ارجعتني إلى الدنيا برحمتك لأعمل صالحًا"، ثم اعمل صالحًا ما دمت حيًا.

الدرس الثاني: كسر الكبر بنكس الرأس في الدنيا

إن صورة {نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ} يجب أن تكون مرآة تنظر فيها كلما شعرت بالكبر. الكبر في الدنيا يقابله

الذل في الآخرة.

· التطبيق العملي:
درب نفسك على نكس الرأس لله في الدنيا طواعية: في الركوع والسجود، في الخضوع عند سماع القرآن، في التواضع للخلق .هذا النكس الاختياري ينجيك من النكس الإجباري يوم القيامة .قال صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لله رفعه".
· مثال: عندما ينتقدك أحد، وتشعر أن كبرياءك قد جرح، تذكر} نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ .{قل لنفسك: "لأنكس رأسي الآن لله بالعفو والصفح، خير من أن أنكسها ذلا ً يوم القيامة".

الدرس الثالث: الانتفاع بالسمع والبصر قبل فوات الأوان

المجرمون قالوا: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}، ولكن بعد فوات الأوان. هذه دعوة لك لتفتح عينيك وأذنيك الآ ن.

· التطبيق العملي:
· سمعك: ماذا تسمع؟ أغاني ومقاطع تافهة؟ أم قرآن وعلم ودروس؟
· بصرك: ماذا تنظر؟ محرمات ومناظر تثير الشهوات؟ أم تتفكر في خلق السماوات والأرض؟
· ضع برنامجًا: خمس دقائق يوميًا تسمع فيها القرآن بتدبر، خمس دقائق تنظر فيها إلى السماء وتتفكر في خلق الله .هذا الاستثمار البسيط هو شكر نعمة السمع والبصر.

الدرس الرابع: اليقين الحقيقي هو يقين الغيب

الآية تعلمك أن اليقين بالشهادة (بعد رؤية العذاب) لا ينفع. الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب. قال تعالى في أول السورة: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ}. هذا هو اليقين المطلوب: يقين بلا رؤية.

· التطبيق العملي:
كلما تلا عليك الشيطان شبهة في صدرك، أو وسوس لك بأنك لا ترى الجنة والنار، قل له: "أنا مؤمن بالغيب .أنا على يقين من وعد ربي، ولو لم أره .يكفيني أن ربي أخبرني، ورب العالمين لا يخلف الميعاد".
ثالثاً: كيف نعيش معنى الآية في يومنا وليلتنا؟

.1عند النوم:
قبل أن تغمض عينيك، استحضر مشهد {نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ}. قل في سرك: "اللّهم إني أسألك أن تجعلني ممن تبيض وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. اللّهم ارزقني رفع الرأس بلقائك، ولا تجعلني من الناكسين رءوسهم خزيًا وندامة".

.2عند الصلاة:
في سجودك، وأنت تضع جبهتك على الأرض، تذكر أن هذا النكس هو نكس اختياري لله. أطل السجود ، وقل: "رب ارحمني، ولا تخزني يوم العرض عليك".

.3في لحظات الغفلة:
إذا شعرت أن قلبك قد قسا، وأنك بدأت تتهاون في الطاعات، اقرأ هذه الآية بصوت مسموع: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ}. كررها ثلاثًا، وستجد رقة في القلب، ورغبة في التوبة.

.4عند رؤية متكبر:
إذا رأيت متكبرًا يشمخ بأنفه، لا تغضب منه، بل ارحمه، وادع له في سرك: "اللّهم اهده، وارزقه التواضع قبل أن ينكس رأسه في القيامة". هذه النظرة تجعلك تعذر الناس بدل أن تحتقرهم.
رابعاً: رسالة ختامية من قلب الآية

أيها الإنسان، أيها القارئ لهذه الآية، إنها ليست قصة عن "المجرمين" في زمن غابر. إنها مرآة ترى فيها صورتك إن بقيت على الغفلة.

· النداء الذي أطلقوه:} رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا{، هو نداء أنت قادر على إطلاقه الآن ولكن بصيغة الشكر: "ربنا أبصرنا آياتك في الأنفس والآفاق، فآمنا .وسمعنا كتابك، فأطعنا .فتقبل منا واغفر لنا".
· طلبهم:} فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا {مرفوض .ولكن أنت في رجعة حقيقية كل صباح: كل يوم تشرق فيه

الشمس هو فرصة جديدة للعمل الصالح .لا تضيع هذه الفرصة.

اجعل هذه الآية منارة في طريقك. كلما هممت بمعصية، تذكر نكس الرءوس. كلما تكاسلت عن طاعة، تذكر اليقين الذي لا ينفع. وعش حياتك بين خوف يردعك، ورجاء يدفعك.

المبحث الرابع

أيها المتدبر، يا من تجولت في رحاب الآيات السابقة فرأيت عظمة الخلق، وأيقنت بحقيقة الموت و البعث، وشهدت بقلبك مشهد المجرمين وهم ناكسو رءوسهم عند ربهم يطلبون الرجعة فلا يجابون... ها أنت الآن تقف أمام سر عظيم من أسرار الله في خلقه، إنه سر المشيئة والاختيار، وسر العدل و الجزاء.

في هاتين الآيتين، يفتح الله لك بابًا من أبواب حكمته البالغة، ويجيب عن سؤال قد يدور في خلدك: "لماذا لم يجعل الله كل الناس مؤمنين؟ لماذا خلق النار وخلق لها أهلا ؟". إنه الجواب الذي يضع المسؤولية على عاتق الإنسان، ويبين أن الله لا يظلم الناس شيئًا، بل هم يظلمون أنفسهم باختيارهم.

تعال نعش مع قوله تعالى:
{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)}
تمهيد: الربط بين مشهد الندم ومشهد العدل الإلهي

في الآية السابقة، رأيت المجرمين وقد نكسوا رءوسهم، يصرخون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا}. هذا المشهد يثير في النفس سؤالا ً وجوديًا: "يا رب، لماذا لم تمنعهم من الضلال أصلا ؟ لماذا لم تهدهم جبرًا حتى لا يصلوا إلى هذا المصير الأليم؟".

هنا يأتي الجواب الإلهي مباشرة في الآية (13): {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}. وكأن الله يقول لك: "لا تظن أني عاجز عن هدايتهم، فلو شئت لجعلتهم كلهم مؤمنين طائعين بلا اختيار منهم. ولكن حكمتي اقتضت غير ذلك".

إنه انتقال من مشهد الحسرة إلى مشهد العدالة المطلقة. انتقال يحررك من الحيرة، ويثبت في قلبك أن الله حكيم عادل، وأن ما يحدث للكافرين هو نتيجة حتمية لاختيارهم الحر.
أولا ً: تفسير الآية الثالثة عشرة (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ...)

1."وَلَوْ شِئْنَا" .. مشيئة القادر على كل شيء

· "لَوْ": حرف امتناع لامتناع، أي: امتنع إيتاء الهدى لكل نفس جبرًا، لوجود مشيئة الله بعدم ذلك . وليس لعدم قدرته.
· "شِئْنَا": من المشيئة الإلهية المطلقة التي لا يعجزها شيء .الله قادر على أن يهدي الناس جميعًا قسرًا ، كما هدى الملائكة الذين} لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] {التحريم:.[6

التصوير الحي:
تخيل أن الله، بقدرته المطلقة، يمكنه أن يسلب من الإنسان إرادته، فيجعله كالملاك أو كالحجر، يتحرك وفق برمجة إلهية لا خيار له فيها. لو فعل ذلك، لكان كل الناس مؤمنين طائعين بلا استثناء. لكن هل هذا هو التكريم الإلهي للإنسان؟

2."لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا" .. الهداية الجبرية الممكنة

· "لَآتَيْنَا": اللام واقعة في جواب "لو"، وآتينا بمعنى أعطينا ومنحنا.
· "كُلَّ نَفْسٍ": عموم يشمل كل إنسان، من آدم إلى آخر مولود .لا يستثني أحدًا.
· "هُدَاهَا": أي هدايتها الكاملة إلى الإيمان والطاعة، بدون اختيار منها.

الرسالة العقدية:
هذه الجملة تقطع الطريق على كل من يظن أن الله لم يستطع أن يهدي الكافرين. كلا! بل هو القادر على ذلك. لكنه بحكمته شاء غير ذلك. لماذا؟ الجواب في كلمة واحدة: {وَلَٰكِنْ}.

3."وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي" .. العدل الإلهي المسبق في العلم

· "وَلَٰكِنْ": حرف استدراك مهم جدًا .يبطل المسار الأول) الهداية الجبرية (ويفتح مسارًا جديدًا) العدل و الاختيار.(
· "حَقّ": أي ثبت ووجب وتقرر .ليس ظلمًا ولا عبثًا.
· "القَوْلُ": المراد به القضاء الأزلي أو الوعد الإلهي الذي سبق في علم الله.
· "مِنِّي": تأكيد على أن هذا القضاء صادر من الله العليم الحكيم.

ما هو هذا القول الذي حق؟
هو ما ورد في مواضع أخرى من القرآن، مثل قوله تعالى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 85]. إنه العلم الأزلي بأن بعض المكلفين سيختارون الكفر بأنفسهم، فاستحقوا النار بعدل الله.

اللمسة التربوية:
هنا يكمن سر التكريم الإنساني. الله لم يشأ أن يخلقنا عبيدًا مسيرين كالملائكة، بل خلقنا أحرارًا مكرمين، نملك القدرة على الاختيار بين الخير والشر. هذه الحرية هي التي تجعل طاعة المؤمن ثمينة، لأنها صادرة عن حب واختيار، لا عن إجبار وقهر.

4."لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" .. المشهد المرعب للعدل

· "لَأَمْلَأَنَّ": اللام لام القسم، والنون للتوكيد الثقيل .إنه قسم من الله على ملء جهنم .يا له من قسم مهيب!
· "جَهَنَّمَ": اسم من أسماء النار، يدل على البعد والقعر والتجهم) العبوس.(
· "مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ": أي من عصاة الثقلين: الجن والإنس .ذكر الصنفين معًا يؤكد شمولية الجزاء.
· "أَجْمَعِينَ": توكيد آخر للعموم والكثرة.

التصوير الحي للمشهد:
تخيل جهنم وقد فتحت أبوابها. أفواج المجرمين من الجن والإنس تُساق إليها زرافات ووحدانًا. جهنم تقول: {هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [ق: 30]، ويستمر تدفق العصاة حتى تمتلئ جهنم. لم تظلمهم، بل هم الذين عرضوا أنفسهم لهذا المصير باختيارهم. الله لم يجبرهم على الكفر، بل حذرهم وأنذرهم وأعطاهم العقل والرسل والكتب، فاختاروا هم طريق الضلال.

المفارقة التربوية:
الله قادر على أن يملأ الجنة والنار بكن فيكون. لكنه أراد أن تكون الجنة ثوابًا للمختارين للهدى، والنار عقابًا للمختارين للضلال. وهذا هو العدل المطلق. من دخل النار، دخلها بعدل الله، لأنه هو الذي سعى إليها بقدميه.
ثانياً: تفسير الآية الرابعة عشرة (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ...)

1."فَذُوقُوا" .. الأمر الإلهي بالتجربة المباشرة

· "فَذُوقُوا": الفاء للسببية .أي: بسبب ما سبق من كفركم ونسيانكم للقاء، ذوقوا.
· الذوق: أبلغ من مجرد الإحساس .الذوق هو الإحساس المباشر بالشيء حتى تخالطه الحواس .إنه أمر من الله لهم بأن يتجرعوا العذاب ويشعروا به في كل ذرة من كيانهم .ليس خبرًا عن العذاب، بل هو معايشة حية.

التصوير الصوتي:
تخيل هذا النداء الإلهي الجليل وهو يجلجل في أرجاء المحشر، موجهًا إلى هؤلاء المجرمين: {فَذُوقُوا}. إنه خطاب توبيخ وعدل. ليس فيه شماتة، بل هو تقرير للواقع: "هذا ما اخترتموه لأنفسكم، فهيا تذوقوا ثمرة اختياركم".

2."بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا" .. ربط العذاب بالسبب

· "بِمَا": الباء للسببية .أي: بسبب نسيانكم.
· "نَسِيتُمْ": النسيان هنا ليس الغفلة عن الذكر فقط، بل هو الإهمال والترك المتعمد .لقد جاءتهم الرسل بالتحذير، فتناسوه وأعرضوا عنه .قال تعالى:} فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا] {الأعراف:.[51
· "لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا": أي لقاء يوم القيامة هذا الذي كنتم تكذبون به.

التصوير النفسي:
انظر إليهم وهم يتلقون هذا الخطاب. إنه تقريع الضمير. يذكرهم الله بما كانوا عليه في الدنيا من تجاهل وإهمال لهذا اليوم. كانوا يعيشون وكأنهم مخلدون في الدنيا، لا حساب ولا عقاب. والآن، ها هو اليوم الذي كذبوا به حقيقة ماثلة أمامهم، يعذبون بسببه.

.3"إِنَّا نَسِينَاكُمْ" .. النسيان الإلهي العادل

· "إِنَّا": توكيد من الله سبحانه.
· "نَسِينَاكُمْ": النسيان من الله ليس كنسيان البشر) غفلة عن العلم .(الله لا ينسى شيئًا .بل معناه: تركناكم في العذاب، وأهملناكم، ولم ننظر إليكم نظرة رحمة، ولم نستجب لصراخكم .كما قال تعالى: }كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ] {طه:.[126

التصوير الوجداني المؤلم:
تخيل نفسك في ضيق شديد، وأعز الناس إليك قد أدار وجهه عنك وتركك، لا ينظر إليك، لا يسمع استغاثتك. أي ألم هذا؟ فكيف إذا كان الذي تركك هو رب العالمين؟!
هذا هو النسيان الإلهي: أن يتركهم الله في العذاب، لا يلتفت إليهم، لا يرحمهم، لا يستجيب دعاءهم. إنه أشد أنواع العذاب النفسي، وهو نتيجة عادلة لنسيانهم لله في الدنيا.

.4"وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" .. تأكيد الخلود والسببية

· "وَذُوقُوا": تكرار الأمر للتأكيد على شدة العذاب واستمراريته.
· "عَذَابَ الْخُلْدِ": العذاب الدائم الأبدي الذي لا ينقطع ولا ينتهي .الخلود هنا هو كلمة الرعب الكبرى . ليس عذابًا مؤقتًا ثم راحة، بل هو أبدي سرمدي.
· "بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ": تأكيد آخر على أن العذاب ليس ظلمًا، بل هو جزاء عادل لما قدمته أيديهم في الدنيا من كفر ومعاصي.

التصوير الحركي للعذاب:
تخيل هؤلاء المجرمين وقد سمعوا كلمة "الْخُلْدِ". كم تمنوا لو كان العذاب ألف سنة ثم ينتهي، أو مليون سنة ثم يخرجون. لكن كلمة "الْخُلْدِ" تقطع عليهم كل أمل. إنها السجن الأبدي بلا إفراج. وهم يسمعون {وَذُوقُوا} مرة بعد مرة، فلا يزدادون إلا عذابًا فوق عذاب.
ثالثاً: ما الذي يريده المولى عز وجل منا عند تدبر هاتين الآيتين؟

بعد هذا العرض التفصيلي، نقف لحظة لنسأل: "يا رب، ماذا تريد مني أنا شخصيًا من هذه الآيات؟".

الجواب يتلخص في خمس رسائل ربانية مباشرة إلى قلبك:

الرسالة الأولى: اعرف قدر نفسك وكرامة اختيارك
يريد الله منك أن تفرح وتشعر بالامتنان لأنك مختار ولست مجبرًا. لقد كرمك الله بالعقل والإرادة. هذه الحرية هي أثمن ما تملك. فلا تبعها للشيطان والهوى. كلما هممت بطاعة، فاعلم أنك تقدم هدية حب إلى الله، لأنك تفعلها باختيارك لا بإجباره.

الرسالة الثانية: تحمل مسؤولية أفعالك كاملة
لا تعش في الدنيا متذرعًا بالقدر: "هذا قدري، أنا مجبور على المعصية". الآية تقول لك بوضوح: {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}. أنت المسؤول. قدر الله محيط بعلمه، لكنه لم يجبرك. تحمل مسؤولية أخطائك، وتب إلى الله منها. ولا ترمِ بها على الشيطان أو المجتمع أو الظروف. أنت صاحب القرار.

الرسالة الثالثة: تذكر لقاء الله في كل لحظة
كلمة {نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا} هي التحذير الأكبر. يريد الله منك أن تجعل لقاءه نصب عينيك دائمًا. لا تكن من الذين ينسون هذا اليوم فيلهثون وراء الدنيا. ضع سؤالا ً دائمًا في قلبك: "ماذا سأقول لربي إذا لقيته غدًا؟". هذا السؤال هو بوصلتك الأخلاقية.

الرسالة الرابعة: آمن بعدل الله المطلق حتى لو لم تفهم الحكمة
قد ترى في الدنيا ظلمًا وفسادًا، وتتساءل: "أين الله من هذا؟". هذه الآية تثبت قلبك: عدل الله آتٍ لا محالة. سيملأ جهنم من المجرمين. سيعاقب كل ظالم ولو بعد حين. لا تستعجل، ولا تشك في عدل الله. ثق أن كل حق سيعود لصاحبه.

الرسالة الخامسة: بادر بالعمل قبل أن يقال لك: "فذوقوا"
المجرمون في الآية سمعوا {فَذُوقُوا}. أنت الآن تسمع {اعْمَلُوا}. أنت في مرحلة العمل، وهم في مرحلة الجزاء. يريد الله منك أن تستثمر فرصة الحياة قبل أن تسمع هذه الكلمة وأنت في القبر أو في المحشر. اليوم عمل بلا حساب، وغدًا حساب بلا عمل.
رابعاً: المفاهيم العملية لبناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية

كيف نبني إنسانًا قويًا، ومجتمعًا متماسكًا، وحضارة مزدهرة، وتنمية مستدامة من خلال هاتين الآيتين؟

أولا ً: في بناء الإنسان (التكوين النفسي والعقلي والروحي)

.1ترسيخ مبدأ المسؤولية الفردية:
الآية تؤكد أن العذاب} بِمَا كُنتُمْ تعْمَلُونَ .{هذا يبني إنسانًا مسؤولا ً عن أفعاله، لا يتكل على غيره، ولا يبرر أخطاءه بالظروف .إنسان يعلم أنه سيحاسب وحده، فيجتهد في إصلاح نفسه.
· تطبيق عملي: ربِّ أبناءك على أن يقولوا: "أنا المسؤول" بدل "هو السبب" .إذا أخطأ الابن، علمه أن يعترف بخطئه ويصلحه، لا أن يلقي اللوم على أخيه أو صديقه.
.2تنمية الإرادة الحرة الواعية:
فهم أن الله} لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا {ولكنه لم يفعل، يجعل الإنسان يعتز بحريته ويدرك قيمتها .هذا يبني شخصية قوية الإرادة، تختار الحق عن قناعة، لا عن تقليد أعمى.
· تطبيق عملي: في التربية، لا تجبر ابنك على الصلاة بالسوط فقط، بل علمه لماذا نصلي، وعرفه بمن يصلي، حتى يصلي عن حب واقتناع، لا عن خوف منك.
.3بناء عقلية استباقية لا تنتظر الصدمة:
المجرمون لم يؤمنوا حتى رأوا العذاب .الآية تعلمك أن تكون استباقيًا في الخير .لا تنتظر المرض لتشكر نعمة الصحة، ولا تنتظر الفقر لتتصدق، ولا تنتظر الموت لتتوب.
· تطبيق عملي: ضع خطة سنوية لأهدافك الروحية: كم جزءًا ستحفظ؟ كم يومًا ستصوم تطوعًا؟ لا تنتظر أن "تتفرغ" يومًا ما، فربما لا يأتي هذا اليوم.

ثانياً: في بناء المجتمع (العلاقات والقيم الاجتماعية)

.1إرساء مبدأ العدالة الاجتماعية:
الإيمان بأن الله سيملأ جهنم من المجرمين يزرع في المجتمع الثقة في العدالة الإلهية .هذا يمنع انتشار الإحباط واليأس عند رؤية الظلم .الناس تعمل صالحة وتصبر، لأنها موقنة أن العدالة قادمة.
· تطبيق عملي: في القضاء والتحكيم، يجب أن تكون أحكامنا عادلة، لأننا نستمد عدالتنا من عدل الله .لا نميز بين غني وفقير، ولا بين قريب وبعيد.
.2تعزيز قيمة التسامح مع المخالف في الرأي:
بما أن الله لم يجبر الناس على الهداية، فلا يجوز لنا أن نجبرهم نحن} .لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .{هذا يبني مجتمعًا يحترم حرية الاعتقاد، ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يمارس الإكراه.
· تطبيق عملي: في العمل الدعوي، لا تفرض رأيك بالقوة .استخدم الحوار والمنطق .تذكر أنك لو أكرهت أحدًا على الإسلام بلسانك، فقد يسلم بجسده ويكفر بقلبه، وهذا لا ينفعه عند الله.
.3ترسيخ ثقافة "لا عذر بعد البيان":
الآية تقول إنهم عذبوا} بِمَا نَسِيتُمْ {بعد أن جاءهم الإنذار .هذا يوجب على المجتمع أن يكون فيه علماء ودعاة يبلغون رسالة الله .فإذا حصل البلاغ، قامت الحجة.
· تطبيق عملي: ادعم المؤسسات التعليمية والدعوية التي تعلم الناس دينهم .فبذلك تعذر إلى الله، وتساهم في إنقاذ الناس من عذاب} فَذُوقُوا.{

ثالثاً: في بناء الحضارة والتنمية (العمران والتقدم)

.1تحويل العبادة إلى طاقة إنتاجية:
عندما يعلم الإنسان أنه مسؤول عن عمله، وأنه سيُسأل عن عمره فيما أفناه، فإنه يحول كل عمل دنيوي مباح إلى عبادة إذا نوى به الخير.
· تطبيق تنموي: مهندس يبني جسرًا، إذا استحضر أنه يخدم عباد الله، كان عمله عبادة يُثاب عليها .هذا الشعور يجعله يتقن ويبدع، فتزدهر الحضارة .بينما لو شعر أنه مجبر على العمل، لكان إنتاجه ضعيفًا.
.2نبذ الجبرية والتواكل) معضلة التنمية(:

بعض الناس يفهمون القدر خطأً، فيقولون: "ما قدره الله سيكون، فلا داعي للعمل" .هذه الآية تنسف هذا الفهم .الله لم يجبر الناس على الضلال، بل حقت كلمته بناءً على علمه باختيارهم .أنت مخير في العمل، ومأمور به.
· تطبيق تنموي: لا تقل: "الرزق مكتوب، فلماذا أتعب في التجارة؟" .هذا كسل محرم .بل اعمل واجتهد، وتوكل على الله، فالرزق مكتوب بسبب سعيك.
.3الاستثمار في "رأس المال البشري" الحر الواعي:
الحضارة لا تبنى بالعبيد، بل بالأحرار .الآية تؤكد أن الله أراد لنا حرية الاختيار .المجتمع الذي يحترم حرية أفراده ويطلق طاقاتهم الإبداعية، هو مجتمع متحضر.
· تطبيق عملي: في الإدارة، لا تكن ديكتاتورًا تملي الأوامر فقط .امنح موظفيك مساحة للاختيار وا لإبداع .ثق بهم، فهم بشر مكرمون لا آلات.
.4الاستدامة البيئية والمسؤولية تجاه الأجيال القادمة:
الإيمان بأننا مسؤولون عن أعمالنا أمام الله، يجعلنا نحرص على عدم الإفساد في الأرض .فالذي يلوث البيئة أو يهدر الموارد، سيسأل عن ذلك.
· تطبيق عملي: ضع سياسات صارمة لحماية البيئة، واعلم أن إهمالها جريمة تحاسب عليها أمام الله، لأن ضررها يمتد لأجيال لم تأت بعد.
خامساً: خاتمة جامعة .. كيف نعيش الآيتين في حياتنا؟

أيها الإنسان المكرم، أيها المختار لا المجبر، أيها المسؤول عن مصيرك... هاتان الآيتان ليستا للخوف المجرد، بل هما دستور حرية وعدالة:

· آمن بقدرة الله المطلقة، واعلم أنه لو شاء لهداك جبرًا، ولكنه ترك لك شرف الاختيار.
· اختر الهداية بنفسك، حبًا في الله وشوقًا إلى لقائه، لا خوفًا من عذابه فقط.
· تحمل مسؤولية أخطائك، وتب منها فورًا، ولا تسوّف.
· ابنِ حياتك ومجتمعك وحضارتك على أساس الحرية المسؤولة، لا على أساس الجبرية المقعدة.
· اجعل لقاء الله هدفك الأسمى، واعمل لهذا اللقاء عملًا يبيض وجهك، ويجعلك ممن يقال لهم يوم القيامة:} ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] {النحل:[32 ، لا ممن يقال لهم:} فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا.{

القسم الثالث

المبحث الأول

أيها المتدبر الكريم، يا من أبصرت عظمة الخلق، وأيقنت بحقيقة الرجوع إلى الله، وشهدت مشهد المجرمين وهم ناكسو رءوسهم يطلبون الرجعة فلا يجابون، وعرفت سر المشيئة الإلهية وعدل الله المطلق في الجزاء... ها أنت الآن تقف على مشارف الصورة المقابلة، الصورة المشرقة، صورة المؤمنين الصادقين الذين انتفعوا بآيات الله، فلم يكونوا كالمجرمين الذين أعرضوا واستكبروا.

بعد أن عرض الله تعالى حال المجرمين وما ينتظرهم من عذاب الخلد بسبب نسيانهم للقاء ربهم واستكبارهم، يأتي هنا ليصف لك حال المؤمنين الحق، لترى الفرق بين الفريقين، ولتختار بنفسك أي الفريقين تريد أن تكون.

إنها آية التكريم الإلهي للمؤمنين، آية تكشف لك صفاتهم القلبية والعملية، وتجعل من كل مسلم هدفًا ساميًا يسعى إليه. تعال نغوص في بحار هذه الآية الكريمة، ونعيش مع كل حرف فيها.

قال تعالى:
{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15)} [السجدة: 15]
تمهيد: الربط بين حال المجرمين وحال المؤمنين

في الآيات السابقة، رأيت صورة المجرمين بكل تفاصيلها المؤلمة:

· هم} نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ {من الذل والخزي.
· هم الذين} نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا.{
· هم الذين سيدخلون النار ويقال لهم:} فَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ.{

أما هنا، فيفتح الله لك نافذة على صورة المؤمنين الصادقين:

· هم الذين} خَرُّوا سُجَّدًا {طواعية لله في الدنيا، قبل أن يُجبروا على الذل في الآخرة.

· هم الذين} سَبّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ {فلم ينسوا لقاء ربهم، بل عظموه وشكروه.
· هم الذين} لَا يَسْتَكْبِرُونَ{، فعصمهم الله من نكس الرءوس يوم القيامة.

وكأن الآية تقول لك: اختر أي الصورتين تريد لنفسك.

· صورة من سجد لله في الدنيا طوعًا = رفع الله رأسه في الآخرة.
· صورة من استكبر في الدنيا = نكس الله رأسه في الآخرة.
أولا ً: تفسير الآية وبيان معانيها

.1"إِنَّمَا" .. أداة الحصر والقصر

· "إِنَّمَا": كافة ومكفوفة، وهي من أقوى أدوات الحصر والقصر في اللغة العربية .فكأن الآية تقول: "لا يؤمن بآياتنا حق الإيمان إلا هؤلاء الذين هذه صفاتهم".
· اللمسة التربوية:
هذا الحصر يخرج من دائرة الإيمان الحقيقي كل من يدّعي الإيمان بلسانه وقلبه غافل أو مستكبر عن آيات الله .إنه مقياس إلهي دقيق: ليس كل من قال آمنت بلسانه فهو مؤمن حقًا، بل المؤمن من ظهرت عليه هذه العلامات الثلاث: السجود عند التذكرة، والتسبيح بحمد الرب، ونبذ الاستكبار.

.2"يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا" .. الإيمان الحقيقي لا الادعائي

· "يُؤْمِنُ": فعل مضارع يفيد التجدد والاستمرار .أي أن إيمانهم ليس حدثًا عابرًا، بل هو حالة دائمة متجددة كلما سمعوا آيات الله.
· "بِآيَاتِنَا": جمع آية، والمراد بها آيات القرآن الكريم، وآيات الله الكونية التي تدل عليه .وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة "نا" تشريف عظيم لها.
· الرسالة: الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو تفاعل حي مع آيات الله .كل آية تُتلى تزيد المؤمن إيمانًا، وتحدث في قلبه رجفة ورغبة ورهبة.

.3"الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا" .. شرط التذكرة والاستجابة الفورية

· "الَّذِينَ": اسم موصول يربط الإيمان بصفات محددة.
· "إِذَا": ظرف زمان يفيد المفاجأة والفورية .أي: في اللحظة التي يسمعون فيها التذكرة بآيات الله، يستجيبون فورًا بلا تردد.
· "ذُكِّرُوا بِهَا": فعل ماضٍ مبني للمجهول، أي أنهم وُعِظوا بآيات الله، فعادت إلى أذهانهم عظمة الله وحقائق الإيمان.
· اللمسة التربوية:
التذكرة تشير إلى أن الفطرة الإنسانية السليمة تعرف الله، ولكنها قد تنسى بفعل الغفلة .فإذا ذُكِّرت بآيات الله، عادت إلى أصلها .ولهذا قيل: "الذكرى تنفع المؤمنين".

التصوير الحي للاستجابة الفورية:
تخيل مجلسًا يُتلى فيه القرآن، أو خطبة جمعة تذكر بالآخرة، أو موعظة عن الموت. كثير من الناس يسمعون ثم يخرجون وكأن شيئًا لم يكن. أما المؤمن الحق الذي تتحدث عنه الآية، فحالته مختلفة تمامًا:

· بمجرد أن تصل الآية إلى أذنه، تهتز نفسه.
· بمجرد أن يفهم معناها، يخر ساجدًا لله.
· إنها استجابة فورية لا تحتمل التأخير .لماذا؟ لأن قلبه حي بذكر الله، وآيات الله وقود لهذا القلب.

.4"خَرُّوا سُجَّدًا" .. ذروة الخضوع والعبودية) الصورة المركزية(

هذه هي الصفة الأولى التي تميز المؤمنين الصادقين. دعنا نقف معها طويلا ً، ونتأمل كل حرف فيها.

· "خَرُّوا": من الخرور، وهو السقوط بسرعة وبلا تردد من أعلى إلى أسفل .ليس مجرد "سجدوا" بتؤدة وتمهل، بل خروا، أي هووا إلى الأرض فورًا .لماذا؟ لأن عظمة الله قد ملأت قلوبهم، فلم تعد قواهم تحتمل الوقوف.
· "سُجَّدًا": حال منصوبة، تفيد أنهم حين سقطوا كانوا في حالة سجود .لم يسقطوا صرعى مغشيًا

عليهم فقط، بل سقطوا على وجوههم ساجدين لله .إنه الانقياد الكامل مع الوعي التام.

التصوير الحي للمشهد (كاميرا تصور المؤمنين):
أغمض عينيك، وتخيل عبدًا من عباد الله الصالحين، يجلس في خلوته، أو في مسجده، يسمع آية من كتاب الله تتحدث عن عظمة الخالق، أو عن أهوال القيامة، أو عن رحمة الله. فجأة، ودون تخطيط مسبق، ودون أن ينظر حوله هل يراه أحد أم لا... يهوي إلى الأرض، تسقط جبهته على التراب، ويسجد.

لماذا يفعل ذلك؟

· لأنه تذكر عظمة الله، فلم تحتمل جوارحه الوقوف.
· لأنه تذكر ذنوبه، فخاف من عقاب الله، فلاذ بالعفو والسجود.
· لأنه تذكر نعم الله، ففاض قلبه شكرًا، فلم يجد ترجمة لهذا الشكر إلا السجود.

هذا المشهد هو نقيض مشهد المجرمين في الآية السابقة:

· أولئك نكسوا رءوسهم في الآخرة ذلا ً وخزيًا.
· وهؤلاء خروا سجدًا في الدنيا طوعًا وحبًا.
والنتيجة: أولئك أذلهم الله، وهؤلاء رفعهم الله.

الفرق بين "خر" و"سجد":
لو قال: "سجدوا" فقط، لكان ذلك يدل على فعل السجود المعتاد. ولكن اختيار "خروا" يضيف معنى المفاجأة والسرعة والاندفاع القلبي. إنه سجود نابع من القلب قبل أن يكون حركة جسد. إنه سجود المفاجأة الإيمانية، كما حدث لأصحاب الكهف حين قاموا وقالوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف: 14].

5."وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" .. الجمع بين التنزيه والثناء

· "سَبَّحُوا": من التسبيح، وهو تنزيه الله عن كل نقص وعيب .قالوا: "سبحان الله" أي أنزهه عن كل ما لا يليق به.
· "بِحَمْدِ رَبِّهِمْ": الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال والجلال والإحسان .فجمعوا بين التنزيه)التسبيح (والإثبات) الحمد.(
· "رَبِّهِمْ": إضافة الرب إليهم تذكرهم بنعمه وتربيته لهم، وهذا يزيدهم حمدًا وتسبيحًا.

التصوير الصوتي للمشهد:
انظر إليهم وهم ساجدون على الأرض. جباههم على التراب، وشفاههم تتحرك بتسبيح وبحمد. لا يكتفون بالسجود الجسدي، بل يضيفون إليه السجود القلبي واللساني. إنها عبودية كاملة: جسد خاضع، ولسان ذاكر، وقلب خاشع.

ماذا كانوا يقولون في سجودهم؟
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في سجوده: "سبحان ربي الأعلى" (تسبيح)، "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" (تسبيح بحمد). إنه تطبيق عملي لهذه الآية.

6."وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" .. الخصلة الجامعة المانعة

· "وَهُمْ": جملة حالية، تفيد أن نفي الاستكبار عنهم حالة دائمة ملازمة لهم، وليس فقط وقت السجود.
· "لَا يَسْتَكْبِرُونَ": الاستكبار هو طلب الكبر والتكبر .هم لا يطلبون الكبر، ولا يتصفون به .قلوبهم متواضعة لله ولخلقه.

العلاقة بين السجود ونبذ الكبر:
السجود هو أكبر مظهر من مظاهر التواضع. أن تضع جبهتك - وهي أعلى وأشرف عضو فيك - على ا لأرض، هذا هو غاية الذل لله. والله تعالى يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60].

فالمؤمنون الصادقون هم ضد المستكبرين:

· إبليس استكبر عن السجود لآدم، فطُرد من رحمة الله.
· فرعون استكبر في الأرض، فأغرقه الله.
· أما هؤلاء المؤمنون، فهم لا يستكبرون أبدًا، ولذلك هم في رحمة الله وجواره.
ثانياً: أمثلة واقعية وتطبيقات عملية من الآية (كيف نعيشها في حياتنا؟)

المثال الواقعي الأول: سجود التلاوة .. امتحان التواضع العملي

أنت تقرأ القرآن، فتمر بآية سجدة (مثل هذه الآية نفسها، أو غيرها من آيات السجدات). ماذا تفعل؟

· المستكبر: يقول: "لست على وضوء الآن"، أو "أنا في مكان عام والناس ينظرون"، أو "سأسجد لاحقًا في البيت"، ثم يمضي وكأنه لم يسمع شيئًا.
· المؤمن الصادق: بمجرد أن يصل إلى آية السجدة، يبحث عن مكان طاهر، فورًا وبلا تردد، ويكبر ويسجد، حتى لو كان في الشارع أو في العمل .لماذا؟ لأنه خَرّ سَاجِدًا، استجابة فورية لله، غير مبالٍ بنظرات الناس.

درس عملي:
في كل مرة تمر فيها بآية سجدة، تذكر هذه الآية: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا}. قل لنفسك: "هذا امتحان من الله لي: هل أنا من هؤلاء أم لا؟". ثم بادر بالسجود فورًا. بهذا تحول المعرفة إلى سلوك.

المثال الواقعي الثاني: لحظة سماع الموعظة .. هل تتغير؟

تخيل أنك في خطبة جمعة، والإمام يتحدث عن الموت وأهوال القبر، وعن تقصيرنا في الطاعات. قلبك يلين، وعيناك تدمعان. تنتهي الخطبة، وتخرج من المسجد. ماذا تفعل؟

· المستكبر) ولو خفية(: بمجرد أن يخرج من المسجد، ينسى كل ما سمعه .يعود إلى الغيبة، إلى النكت البذيئة، إلى تضييع الصلوات، وكأن شيئًا لم يكن.
· المؤمن الصادق: يخرج من المسجد وقد عقد العزم على تغيير سلوكه .يبدأ بالمحافظة على السنن الرواتب، أو يترك مجالس الغيبة، أو يبادر بصلة رحم كان قاطعًا .إنه يطبق التذكرة فورًا.

درس عملي:
بعد كل موعظة أو درس ديني، اسأل نفسك: "ما هو السلوك العملي الواحد الذي سأغيره بدءًا من اليوم؟". اكتب هذا السلوك في ورقة صغيرة، وضعها في جيبك، واجعلها تذكرك طوال اليوم. هذه هي ترجمة الخرور سجدًا إلى سلوك حياة.

المثال الواقعي الثالث: التواضع في النقاش والحوار

}وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {صفة تشمل كل نواحي الحياة.

· في الأسرة: الزوج الذي يستكبر عن الاعتذار لزوجته إذا أخطأ، أو يستكبر عن مساعدتها في أعمال المنزل.
· في العمل: المدير الذي يستكبر عن سماع آراء موظفيه، أو الموظف الذي يستكبر عن تنفيذ تعليمات مديره بحجة أنه "أفهم منه".
· في العلم: الطالب الذي يستكبر عن سؤال أستاذه خوفًا من أن يظهر بمظهر الجاهل.

المؤمن الصادق يتذكر قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، فيلين جانبه، ويتواضع للحق وللخلق. يعلم أن الكبر ممحقة للبركة، وأن التواضع رفعة من الله.

درس عملي:
في كل موقف تشعر فيه أن "الأنا" تنتفخ في داخلك، وتدفعك للاستكبار، قل لنفسك: "اللهم إني أعوذ بك من الكبر. أنا عبدك الضعيف، وإنما أنا من طين وماء مهين". ثم قدم تنازلًا عمليًا: اعتذر، أو اقبل الرأي الآخر، أو ساعد بيدك. هذا هو الجهاد الحقيقي ضد الاستكبار الخفي.

المثال الواقعي الرابع: التسبيح بحمد الله في كل حال

}وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ {ليست فقط في السجود، بل في كل الأوقات.

· عند رؤية نعمة: كأن ترى زهرة جميلة، أو تسمع خبرًا سارًا، قل فورًا: "سبحان الله وبحمده" .هذا يحول الاستمتاع بالنعمة إلى عبادة.
· عند مواجهة مصيبة: كأن تمرض أو تخسر مالا ً، قل: "سبحان الله وبحمده، الحمد لله على كل حـ ال" .هذا التسبيح في المصيبة دليل الرضا، وهو من صفات المؤمنين الصادقين.

درس عملي:
اجعل لسانك رطبًا بذكر الله، وبخاصة "سبحان الله وبحمده". فهي كلمات خفيفة على اللسان، ثقيلة في الميزان، حبيبة إلى الرحمن. اجعلها وردك اليومي، وقلها مائة مرة كل صباح ومساء. ستجد أثرها العجيب في صفاء قلبك وطمأنينة نفسك.
ثالثاً: الدروس المستفادة من الآية (حصاد التدبر)

الدرس الأول: الإيمان الحقيقي يظهر في السلوك لا في الادعاء

الآية لم تقل: "إنما يقول آمنت بآياتنا"، بل قالت: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ} متبوعًا بصفات عملية: خروا سجدًا، سبحوا، لا يستكبرون. الإيمان ليس كلمة، بل حالة قلبية تترجمها الجوارح.

الدرس الثاني: الاستجابة الفورية لأمر الله علامة الصادقين

}إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا .{"إذا" الفورية تعلمنا أن تأخير الطاعة هو من عمل الشيطان .إذا سمعت الأذان، قم فورًا .إذا تذكرت ذنبًا، تب فورًا .إذا خطرت لك فكرة خير، افعلها فورًا .لا تؤجل.

الدرس الثالث: السجود هو دواء الكبر والغفلة

السجود - وخاصة سجود التلاوة - هو علاج نبوي لقسوة القلب. كلما شعرت أن قلبك قد قسا، وأنك بدأت تتكبر على الحق أو الخلق، فاخرر ساجدًا لله. ضع جبهتك على الأرض، وقل: "سبحان ربي الأ على". ستشعر بعدها براحة عجيبة، وكأن حملا ً ثقيلا ً قد أزيل عن كاهلك.

الدرس الرابع: الجمع بين تنزيه الله والثناء عليه هو كمال العبودية

}سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .{لا يكفي أن تقول: "سبحان الله" فقط، بل أتبعها بـ "وبحمده" .لماذا؟ لأن التسبيح وحده نفي للنقائص، والحمد إثبات للكمالات .والجمع بينهما هو التوحيد الكامل .ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".

الدرس الخامس: التواضع ثمرة الإيمان الحقيقي

}وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .{من ادعى الإيمان وهو متكبر على عباد الله، فهو كاذب .الكبر من صفات إبليس، والتواضع من صفات محمد صلى الله عليه وسلم .فتش في قلبك عن ذرات الكبر: احتقار الآخرين، عدم قبول النصيحة، حب الظهور والتصدر ...واستأصلها بالمجاهدة والدعاء.
رابعاً: خاتمة جامعة .. كيف نخرج من الآية بقلب خاشع وحياة ساجدة؟

أيها المؤمن، أيها المتدبر لكتاب الله، إن هذه الآية ترسم لك خارطة طريق الإيمان:

.1استمع لآيات الله بقلب حاضر: لا تكن كمن في أذنيه وقر.
.2إذا تذكرت عظمة الله، فاخرر ساجدًا: لا تؤجل، ولا تستكبر.
.3في سجودك، سبح بحمد ربك: اجمع بين تنزيهه والثناء عليه.
.4في كل حياتك، كن متواضعًا: لله أولا ً، وللخلق ثانيًا.

اجعل هذه الآية ميزانًا تقيس به إيمانك كل يوم. اسأل نفسك كل ليلة:

· كم مرة ذكرت بآيات الله اليوم؟ وكيف كانت استجابتي؟
· هل خَرَرْتُ ساجدًا اليوم طواعية لله؟

· هل كان لساني رطبًا بـ التسبيح والحمد؟
· هل تواضعتُ لله ولخلقه، أم شعرتُ بشيء من الاستكبار؟

إن أجبت عن هذه الأسئلة بصدق، وعملت على تحسين إجاباتك كل يوم، فأنت تسير على طريق {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا}. وإن وجدت تقصيرًا، فبادر إلى التوبة والاستغفار، واسأل الله أن يجعلك من هؤلاء الصادقين.

المبحث الثاني

أيها المتدبر، يا من ذقت حلاوة السجود والانكسار بين يدي الله في قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، ها أنت الآن تدخل إلى الغرفة السرية لهؤلاء المؤمنين الصادقين. غرفة لا يراهم فيها إلا الله، ولا يسمع أنينهم فيها إلا رب الأرض والسماوات. إنه جوف الليل، حيث ينام الناس، ويقوم الأبرار، وحيث تُعقد الصفقات الرابحة مع الله، وحيث تُبنى النفوس، وتُشحذ الهمم، وتتنزل الرحمات.

بعد أن وصف الله تعالى حال المؤمنين في الاستجابة العلنية لآياته (بالسجود والتسبيح ونبذ الا ستكبار)، يأتي هنا ليصف حالهم في الخلوة، في الليل، عندما تغمض العيون، وتخلد الأجساد إلى الراحة، وتتوقف ضوضاء الحياة. إنه مشهد العبودية الخالصة، التي لا يشوبها رياء ولا سمعة، لأنها بعيدة عن أعين الناس.
تعال نعيش مع قوله تعالى:
{تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16)} [السجدة: 16]
تمهيد: الربط بين آية السجود العلني وآية القيام السري

في الآية السابقة (15)، رأيت المؤمنين في حالة يقظة روحية فورية: إذا سمعوا آيات الله خروا سجدًا. هذا السجود قد يكون في أي وقت، أمام الناس أو في الخلاء. إنه استجابة آنية للتذكرة.

أما هنا، في الآية (16)، فالصورة تنتقل إلى مشهد مختلف تمامًا:

· ليس استجابة لموقف طارئ، بل برنامج يومي ثابت.
· ليس في وضح النهار حيث يراهم الناس، بل في ظلمة الليل حيث لا يراهم إلا الله.
· ليس مجرد سجود، بل ترك للفراش الوثير، وقيام بين يدي الله، ودعاء، وإنفاق.

وكأن الآية تقول لك: "إيمانهم لم يكن مجرد عاطفة لحظية عند سماع الموعظة، بل تحول إلى نظام حياة، وإلى عبادة خفية لا يطلع عليها إلا الله".

اللمسة التربوية:
هذا الانتقال يعلمك أن الإيمان الحقيقي له جانبان:

.1جانب علني: يظهر في المسجد، وفي المجالس، وعند سماع الموعظة) السجود والتسبيح.(
.2جانب خفي: يظهر في جوف الليل، في الخلوة، بعيدًا عن أعين الناس) التهجد والدعاء والإنفاق السري.(

والمؤمن الصادق هو من جمع بين الجانبين، فأخلص لله في سره وعلانيته.
أولا ً: تفسير الآية وبيان معانيها

.1"تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ" .. الصورة الحية للمجاهدة الليلية

هذه الجملة وحدها لوحة فنية ربانية بكل المقاييس. دعنا نقف مع كل كلمة فيها.

أ. "تَتَجَافَىٰ":

· الفعل "تتجافى" من الجفاء، وهو البعد والارتفاع والانفصال بشدة .لم يقل: "يقومون من المضاجع"، و لا "يتركون المضاجع"، بل قال:} تَتَجَافَىٰ .{وهذه الكلمة تحمل معاني عظيمة:
· المعنى الحسي: الجنب - وهو الجزء الذي ينام عليه الإنسان - يرتفع وينبو ويبتعد عن الفراش، كأن الفراش أصبح يكرههم ويكرهونه! إنها صورة التنافر والتباعد بين الجسد النائم والفراش الوثير.
· المعنى النفسي: الجنب هنا كناية عن الجسد كله الذي يأنف من الراحة والدعة إذا حان وقت مناجاة الله .إنه جهاد النفس ضد حظوظها من النوم واللذة.

ب. "جُنُوبُهُمْ":

· "جنوب" جمع "جنب"، وهو الجزء من الجسم الذي يلتصق بالفراش عند النوم .اختيار هذا اللفظ بـ الذات تصويري بليغ:
· إنه يرسم مشهد الإنسان وقد انقلب على جنبه، والتحف بغطائه، واستسلم للنوم.
· ثم فجأة، يتجافى ذلك الجنب عن الفراش، وينتصب الجسد قائمًا، ويتوجه إلى الوضوء والصلاة .
إنه انقلاب كامل من حالة السكون والراحة إلى حالة الحركة والعبادة.

ج. "عَنِ المَضَاجِعِ":

· "المضاجع" جمع "مضجع"، وهو مكان الاضطجاع والنوم .واللفظ يوحي بـ الراحة واللذة والدفء .
إنها الأسرّة الوثيرة، والفرش الناعمة، التي يداعبها النعاس وتغريها بالبقاء.

التصوير الحي للمشهد (كاميرا تصور لحظة التجافي):

تخيل الساعة الثانية أو الثالثة ليلا ً. العالم كله في سكون. البيوت أغلقت أبوابها، والأنوار أطفئت، وا لأجساد ألقت بنفسها على المضاجع. رجل عائد من عمل شاق، جسده منهك، ورأسه مثقل بالنعاس. يلقي بنفسه على فراشه، فيلمس جنبه الفراش الدافئ. النوم يداعب عينيه، والفراش يحتضنه.

وفجأة... يذكر الله. يذكر وعد الله للمتهجدين. يذكر أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول: "هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟".

في تلك اللحظة، يتجافى جنبه عن المضجع. ينتفض الجسد الذي كان قبل ثوانٍ يستسلم للراحة. يقوم إلى وضوئه، والماء البارد يصب على وجهه، فينطلق إلى صلاته، يقف بين يدي الله في ظلمة الليل. لا يراه أحد. ليس هناك جمهور يصفق، ولا سمعة يطلبها. فقط الله هو الرقيب.

هذا المشهد هو قمة الإخلاص ودليل صدق الإيمان.

السؤال الذي تطرحه الآية على نفسك:
أيها المسلم، كم مرة تجافى جنبك عن مضجعك في جوف الليل، لا لمرض، ولا لسهر على محرم، ولا لعمل دنيوي، بل لله وحده؟ كم مرة غلبتك الراحة فبقيت في فراشك، ثم ندمت في الصباح؟

.2"يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا" .. عبادة قلبية في جوف الليل

بعد أن وصف الله حركة الجسد (تتجافى جنوبهم)، يصف هنا حركة القلب واللسان (يدعون ربهم).
وهذا كمال العبودية: جسد قائم، وقلب خاشع، ولسان داعٍ.

أ. "يَدْعُونَ":

· الدعاء هو العبادة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الدعاء هو العبادة" .وهو يشمل: السؤال و الطلب، والثناء والتسبيح، والاستغفار والتوبة.
· "يَدْعُونَ" فعل مضارع يفيد الاستمرار .فهم في صلاتهم وتهجدهم دائمًا يدعون .ليس دعاءً واحدًا ثم يسكتون، بل هم في حالة دعاء مستمر.

ب. "رَبَّهُمْ":

· مرة أخرى، يذكرهم بأنهم يدعون ربهم، الذي رباهم بنعمه، وتولاهم برحمته .هذا اللفظ يستجلب الحياء والرجاء .إنهم يخاطبون المربي الرحيم، لا إلهًا غاضبًا منتقمًا .وهذا يعطيهم جرأة في الدعاء مع هيبة وخشوع.

ج. "خَوْفًا وَطَمَعًا":

· "خَوْفًا": من عذاب الله، ومن عقابه، ومن حرمان رحمته، ومن ألا يتقبل منهم.
· "طَمَعًا": في رحمة الله، وفي مغفرته، وفي جنته، وفي رضوانه.

التوازن النفسي العجيب:
انظر كيف يجمع المؤمن في صلاته ودعائه بين الخوف والطمع:

· الخوف يمنعه من الأمن من مكر الله، ويدفعه إلى الإكثار من الاستغفار، ويمنعه من الغرور بالعمل.
· الطمع يمنعه من القنوط من رحمة الله، ويدفعه إلى الرجاء وحسن الظن بالله، ويجعله مقبلا ً على العبادة بشوق لا بملل.

التصوير الصوتي والوجداني:
تخيلهم في ظلمة الليل، وقوفًا بين يدي الله، يرفعون أكف الضراعة. أصواتهم خافتة لا يسمعها إ لا الله. في قلوبهم رجفة الخوف من عذاب الله، وفي عيونهم دمعة الطمع في رحمته. يقولون: "يا رب ، إن تعذبنا فإنا عبادك، وإن تغفر لنا فأنت الغفور الرحيم". هذا المزيج من الخوف والطمع هو الذي يحيي القلب ويجعله في شوق دائم للقاء الله.
3."وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ" .. تكامل العبادة بالمال

بعد أن ذكر عبادة البدن (تتجافى جنوبهم) وعبادة القلب واللسان (يدعون ربهم)، يذكر عبادة المال (ومما رزقناهم ينفقون). إنه التكامل الإيماني:

· جسدهم لله: يتجافى عن الراحة.
· قلبهم لله: يخافه ويرجوه.
· مالهم لله: ينفقونه في مرضاته.

أ. "وَمِمَّا":

· "من" للتبعيض، أي: بعض ما رزقناهم .لم يقل: "وكل ما رزقناهم"، بل بعضه .وهذا من يسر الإسلام وسماحته .الله لا يطلب منك أن تتصدق بكل مالك، بل جزءًا منه.

ب. "رَزَقْنَاهُمْ":

· "رزقناهم" تذكير لهم بأن المال الذي في أيديهم هو رزق من الله، وليس من كسبهم وحده .وهذا التذكير يدفعهم إلى الإنفاق، ويقتلع من قلوبهم الشح والبخل .كيف أبخل بمال رزقنيه الله؟

ج. "يُنفِقُونَ":

· الإنفاق يشمل الزكاة المفروضة والصدقات النافلة .وهو فعل مضارع يفيد التجدد والاستمرار .هم دائمًا في حالة إنفاق، كلما وجدوا فرصة للخير بادروا إليها.

الربط بين قيام الليل والإنفاق:
لماذا ذكر الإنفاق بعد قيام الليل؟ هناك ارتباط وثيق:

· قيام الليل يطهر القلب من الشح والبخل، ويملؤه بمحبة الله، فإذا أحب العبد ربه، سهل عليه بذل م اله في مرضاته.
· الإنفاق في الليل) صدقة السر (أفضل وأعظم أجرًا، لأنه أبعد عن الرياء .والمؤمنون الذين يقومون الليل هم الأقرب إلى صدقة السر، لأنهم تعودوا العمل لله في الخفاء.

التصوير الحركي للمشهد الكامل:
تخيل هؤلاء المؤمنين:

· أول الليل: تركوا المضاجع الدافئة وقاموا إلى الصلاة والدعاء) عبادة خاصة بينهم وبين الله.(
· في النهار: أخرجوا مما رزقهم الله وبذلوه للمحتاجين) عبادة متعدية النفع للخلق.(
إنهم ينتفعون بأنفسهم ليلا ً، وينفعون غيرهم نهارًا .إنهم خير أمة أخرجت للناس.
ثانياً: أمثلة واقعية من حياة النبي والصحابة والصالحين

المثال الأول: النبي صلى الله عليه وسلم .. إمام المتهجدين

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فيقول له الصحابة: "يا رسول الله،

أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!" فيقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!" [رواه البخاري].

· تطبيق الآية في حياته:
·} تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ{: كان يقوم من الليل حتى تتورم قدماه.
·} يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا{: كان يقول في دعائه: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك".
·} وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{: كان أجود الناس، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

المثال الثاني: أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. جامع الفضائل

كان أبو بكر رضي الله عنه كثير البكاء في صلاة الليل، لا يكاد يُسمع صوته من شدة الخشية. وكان منفقًا كبيرًا، أعتق بلالا ً، وجهز جيش العسرة، وتصدق بماله كله.

· تطبيق عملي:
· كان يقوم الليل في خلوته، فيسمع منه أنين البكاء، فإذا سئل قال: "ادعوا الله لأخيكم، فإنه مغلوب على أمره".
· إنفاقه كان في الليل والنهار، في السر والعلن، ابتغاء وجه الله.

المثال الثالث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. القائم بالليل، الساعي بالنهار

كان عمر رضي الله عنه يقوم الليل ويوقظ أهله، وكان يطوف في الليل يتفقد أحوال الرعية، ويحمل الطعام على ظهره للأرملة والأيتام.

· تطبيق عملي:
· ليله: صلاة ودعاء وبكاء.
· نهاره: إنفاق وسعي على الأرامل والمساكين.
· هذا هو التجسيد العملي للآية: عبادة خاصة تثمر خدمة عامة.

المثال الرابع: امرأة من التابعين .. هكذا تصنع الأمهات الأبطال

روي أن امرأة صالحة كانت تقول لابنها عند الفجر: "قم يا بني، الليل قد مضى، وبين يديك طريق طويل، وقليل الزاد، وقوافل الصالحين قد سارت قدامك، وقد بقيت أنت!". فيقوم الابن فيتوضأ ويصلي.

· درس واقعي للأمهات:
هذه الأم ربت ابنها على معنى} تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .{علمته أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الليل غنيمة باردة لا ينبغي تضييعها.

المثال الخامس: رجل من عامة المسلمين اليوم

أخبرني أحد الأصدقاء عن زميل له في العمل، رجل بسيط، يعمل في وظيفة متواضعة. اكتشف بالصدفة أن هذا الرجل لا ينام الليل إلا قليلا ً. يقوم الساعة الثانية صباحًا كل يوم، يصلي ويقرأ القرآن ويدعو، ثم ينام ساعة قبل الفجر، ثم يقوم إلى صلاة الفجر ويذهب إلى عمله. لا يعلم عنه أحد شيئًا. يقول صديقي: "رأيت في وجهه نورًا لا يوصف، وراحة بال عجيبة، رغم قلة نومه!".

· تطبيق عملي معاصر:
هذا الرجل يعيش الآية بكل تفاصيلها .ليس عالمًا ولا شيخًا، بل موظف بسيط، لكنه وجد لذة مناجاة الله في الليل، فصارت له قوتًا للروح وطاقة للنهار.
ثالثاً: الدروس المستفادة من الآية

الدرس الأول: قيام الليل هو مدرسة الإخلاص

}تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ {في ظلمة الليل، بعيدًا عن أعين الناس .من يستطيع أن يقوم من فراشه الدافئ في جوف الليل لله وحده، فقد نجح في اختبار الإخلاص .قيام الليل يطهر القلب من

الرياء، ويعود العبد على مراقبة الله في السر.

الدرس الثاني: الليل غنيمة المؤمن وفرصته للتزود

الليل هو الوقت الذي يخلو فيه العبد بربه، بعيدًا عن مشاغل النهار وضوضائه. إنه رأس مال المؤمن. من ضيع ليله في النوم أو اللهو المحرم، فقد خسر كثيرًا. قال الحسن البصري: "لم أجد شيئًا من العبادة أشد من الصلاة في جوف الليل".

الدرس الثالث: الجمع بين الخوف والرجاء سر العبودية المتوازنة

}خَوْفًا وَطَمَعًا {تعلمك أن لا تأمن مكر الله فتقصر في العمل، ولا تقنط من رحمته فتيأس من المغفرة . عش بين الخوف الذي يدفعك للعمل، والرجاء الذي يجعلك تحب الله وتشتاق إليه.

الدرس الرابع: الإيمان يظهر في البذل والعطاء

}وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {تذكرك أن المال وسيلة للتقرب إلى الله، لا غاية في حد ذاته .من قام الليل، سهل عليه الإنفاق، لأن قلبه تعلق بالله، فلم يعد المال محبوبًا لديه لذاته، بل صار جسرًا إلى الجنة.

الدرس الخامس: التكامل بين العبادات الخاصة والعامة

الآية تجمع بين العبادة الخاصة (قيام الليل والدعاء) والعبادة العامة (الإنفاق). المؤمن الحق لا يكتفي بإصلاح نفسه فقط، بل يمتد نفعه إلى غيره. وهذا هو النموذج الرباني لبناء المجتمع: فرد صالح + عطاء متدفق = مجتمع متماسك.
رابعاً: دور الآية ومفاهيمها في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولاً: في بناء الشخصية المسلمة (الجانب الفردي)

.1تقوية الإرادة والانضباط الذاتي:
} تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ {تدريب يومي على مخالفة الهوى ومجاهدة النفس .عندما يقهر الإنسان رغبته في النوم، ويقوم لله، فإنه يبني إرادة قوية تنعكس على كل جوانب حياته .يصبح قادرًا على ضبط شهواته، والتحكم في غضبه، والصبر على الشدائد.
· تطبيق في التنمية البشرية: برامج تطوير الذات تؤكد على أهمية الاستيقاظ المبكر والانضباط كأساس للنجاح .قيام الليل يحقق هذا بأعلى صورة.
.2تعزيز الصحة النفسية والطمأنينة:
الدعاء والتضرع في جوف الليل} يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا {يفرغ الشحنات النفسية السلبية، ويملأ القلب سكينة وطمأنينة .إنها جلسة علاج نفسي مع الخالق.
· مثال واقعي: كثير من الأطباء النفسيين ينصحون المرضى بالصلاة والتأمل والذكر، لأنها تقلل التوتر والقلق.
.3تربية الضمير الحي والمراقبة الذاتية:
عندما يعتاد الإنسان على العمل لله في الخفاء) قيام الليل(، فإنه يبني ضميرًا حيًا يراقبه في كل تصرفاته، حتى لو غفل الناس عنه .هذا هو أساس النزاهة والأمانة في المجتمع.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم (الجانب الاجتماعي)

.1تعزيز التكافل الاجتماعي:
} وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {توجيه مباشر لبناء مجتمع متكافل، لا ينام فيه غني وشبعان وجاره جائع . الإنفاق - وخاصة في الخفاء - يبني جسور المحبة، ويقضي على الحسد والضغينة بين أفراد المجتمع.
.2إنتاج قادة ربانيين:
التاريخ يخبرنا أن قادة الأمة العظام كانوا أهل قيام ليل .من النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وعمر، إلى صلاح الدين، إلى أحمد بن حنبل ...كلهم كانت لهم خلوات ليلية مع الله، زودتهم بالقوة الروحية التي مكنتهم من قيادة الأمة .المجتمع الذي يكثر فيه المتهجدون، يكثر فيه المصلحون و القادة الصادقون.
.3تقليل الجريمة والانحراف:
الذي يقوم الليل ويخاف الله في سره، لن يسرق، لن يزني، لن يظلم .قيام الليل مصنع للتقوى، و التقوى هي أقوى رادع عن الجريمة .كلما زاد عدد القائمين ليلاً، قل عدد المجرمين نهارًا.

ثالثاً: في بناء الحضارة (الجانب العمراني)

.1تحويل الطاقة الروحية إلى طاقة عمرانية:
الحضارة الإسلامية قامت على أكتاف رجال كانوا عبادًا في الليل، فرسانًا في النهار .كانوا يصلون الفجر، ثم ينطلقون إلى الجهاد، أو إلى طلب العلم، أو إلى عمارة الأرض .قيام الليل لم يكن عزلة سلبية، بل كان محطة شحن للانطلاق إلى العمل والإنتاج.
· مثال تاريخي: علماء المسلمين الأوائل) كالخوارزمي وابن سينا (كانوا متهجدين بالليل، ومنتجين للعلم والمعرفة بالنهار .لم تتعارض عبادتهم مع إبداعهم الحضاري، بل غذته.
.2إتقان العمل كثمرة للإخلاص:
الذي تعود على الإخلاص لله في قيام الليل، ينعكس إخلاصه على جودة عمله في النهار .فهو يعمل لله لا للناس، ولذلك يتقن ويبدع .وهذا الإتقان هو أساس التقدم الحضاري.

رابعاً: في التنمية البشرية (الجانب التطويري)

.1الاستثمار في رأس المال البشري:
قيام الليل يصنع الإنسان المتوازن: روحانيًا، نفسيًا، جسديًا، اجتماعيًا .هذا الإنسان هو الثروة الحقيقية لأي أمة .الأمة التي تربي أبناءها على التجافي عن المضاجع لله، تربيهم على الجد والاجتهاد والبذل، وهذا هو طريق التنمية المستدامة.
.2تنمية الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين:
الإنفاق} وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {ينمي لدى الفرد حس المسؤولية الاجتماعية .يجعله لا يعيش أنانيًا يلهث وراء مصلحته فقط، بل مبادرًا إلى حل مشكلات مجتمعه.
.3إدارة الوقت بكفاءة:
الاستيقاظ لصلاة الليل يعلم الإنسان كيف يدير وقته بدقة .ينام مبكرًا، يستيقظ مبكرًا، يستثمر ساعات البركة) ما قبل الفجر (في العبادة والتخطيط .هذه هي ثقافة إدارة الوقت التي تنادي بها كبرى شركات التنمية البشرية اليوم.
خامساً: كيف نطبق هذه الآية في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1ابدأ بخطوة صغيرة:
لا تقل: "سأقوم الليل كله". ابدأ بركعتين قبل الفجر بربع ساعة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل". ثابر على هاتين الركعتين، وستجدهما بعد شهر أحب إليك من النوم.

.2نم مبكرًا واستعن بالقيلولة:
لن تستطيع قيام الليل إذا سهرت إلى منتصف الليل على الهاتف أو التلفاز. النوم المبكر طاعة، لأنه وسيلة لقيام الليل. والقيلولة (نومة الظهيرة) سنة معينة على قيام الليل.

.3اجعل لك وردًا من الدعاء في سجودك:
في صلاة الليل، أطل السجود، واسأل الله كل ما تريد. {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}. خصص دفترًا صغيرًا تكتب فيه حاجاتك، وتدعو بها في سجودك. ستجد لذة لا توصف.

.4اربط قيامك بالإنفاق:
كلما قمت ليلة، ضع في حصالة خاصة مبلغًا من المال (ولو ريالا ً واحدًا). وفي آخر الشهر، أخرج ما جمعته صدقة سرية. بهذا تربط بين قيام الليل والإنفاق، وتعيش الآية بكل أبعادها.

.5شجع أهلك وأولادك:
اجعل قيام الليل عادة أسرية. مرة في الأسبوع، أيقظ زوجتك وأولادك لصلاة ركعتين معًا، ثم اجلسوا للدعاء. بهذا تبني أسرة قرآنية، وتزرع في أولادك حب الله منذ الصغر.
خاتمة جامعة: رسالة الآية إلى قلبك

أيها العبد، أيها المكرم بالقرآن، إن هذه الآية هي بطاقة دعوة إلى حفلة شرف في جوف الليل، لا يحضرها إلا المحبون الصادقون. الداعي هو الله، والمكان هو ساحة العبودية، والزاد هو الدعاء والإ نفاق.

لا تقل: "أنا مشغول، نومي ثقيل، ظروفي صعبة". تذكر أن {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ} كانت اختيارًا منهم، وليست إجبارًا. اختاروا لذة المناجاة على لذة النوم، فكان الجزاء: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (آية 17، سنأتي إليها لاحقًا).

فابدأ من هذه الليلة. ضع منبهًا، وتوضأ، وصلِّ ركعتين في ظلمة بيتك، واسجد لله، وادعه خوفًا وطمعًا. وأبشر بأنك إن فعلت، فستجد في قلبك نورًا، وفي حياتك بركة، وفي وجهك بهاء.

المبحث الثالث

أيها المتدبر، يا من شهدت بقلبك مشهد المؤمنين الصادقين وهم يتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، وينفقون مما رزقهم الله... ها أنت الآن تقف على أعتاب المفاجأة الكبرى، و الهدية العظمى التي أعدها الله لهم. إنها الآية التي تكشف لك سر الجزاء الخفي، الذي لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، والذي ادخره الله لعباده المخلصين في جنات النعيم.

بعد أن وصف الله تعالى عملهم في الدنيا (تجافي الجنوب، الدعاء، الإنفاق)، يأتي هنا ليصف جزاءهم في الآخرة. ولكنه لا يصفه وصفًا تفصيليًا، بل يخفيه، ويجعله سرًا مكنونًا، ليكون أعظم تشويق، وأبلغ تكريم.

إنها الآية التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}" [متفق عليه].

تعال نغوص في بحار هذه الآية الكريمة، ونعيش مع كل حرف فيها، ولنفتح قلوبنا لاستقبال هذا الوعد الإلهي العظيم.

قال تعالى:
{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)} [السجدة: 17]
تمهيد: الربط بين عملهم الخفي وجزائهم الخفي

تأمل معي هذا التناسق العجيب بين العمل والجزاء:

- عملهم في الدنيا: كان خفيًا في جوف الليل، بعيدًا عن أعين الناس} .تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ.{
- جزاؤهم في الآخرة: خفي أيضًا، لا تعلمه نفس، ولا يخطر على قلب بشر} .مَا أُخْفِيَ لَهُم.{

وكأن الله يقول لهم: "كما أخفيتم عملكم لي في الدنيا عن أعين الخلق، فقد أخفيت لكم جزاءكم في الآخرة عن أعين الخلق، بل وعن علمهم وخيالهم".

إنها معاملة بالمثل، ولكن مع الكرم الإلهي المطلق: هم أخفوا ركيعات ودعوات، فأخفى الله لهم قرة أعين لا توصف. عمل قليل محدود، قابلته نعيم غير محدود.

اللمسة التربوية:
هذا الربط يعلمك أن كل عمل خفي خالص لله، له عند الله جزاء خفي عظيم لا يخطر على بال. فلا تستقل طاعة في السر، ولا تحتقر صدقة في الخفاء، فأنت لا تدري ماذا أخفى الله لك من قرة عين بسببها.
أولا ً: تفسير الآية وبيان معانيها

1."فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ" .. النفي المطلق لعلم المخلوقين

- "فَلَا": الفاء للسببية، أي: بسبب ما تقدم من صفاتهم) التجافي، الدعاء، الإنفاق(، فإن جزاءهم مخفي.
- "لَا": نافية للجنس، تفيد نفي العلم عن أي نفس على الإطلاق.
- "تَعْلَمُ": فعل مضارع يفيد الاستمرار .أي: لا تزال أي نفس لا تعلم، ولن تعلم، ما دامت في هذه الدنيا.
- "نَفْسٌ": نكرة في سياق النفي، فتعم كل نفس على الإطلاق:
- لا ملك مقرب: حتى جبريل وميكائيل وإسرافيل لا يعلمون ما أخفى الله لهؤلاء.
- لا نبي مرسل: حتى محمد صلى الله عليه وسلم، مع عظيم مكانته، لا يعلم تفاصيل هذا الجزاء .

وقد قال كما في الحديث: "ولا خطر على قلب بشر"، وهو سيد البشر.

التصوير الذهني للمشهد:
تخيل عظمة هذا الجزاء! إنه سر من أسرار الغيب، حجبه الله عن جميع خلقه، حتى عن أكرمهم عليه. لماذا؟ لأنه أعد خصيصًا لهؤلاء العباد المخلصين، وجعله مفاجأة لهم يوم القيامة، ليكون فرحهم به أشد

، وتعجبهم منه أعظم.

.2"مَّا أُخْفِيَ لَهُم" .. الإخفاء الإلهي المتعمد

· "مَّا": اسم موصول بمعنى "الذي" .أي: الذي أخفاه الله لهم.
· "أُخْفِيَ": فعل ماضٍ مبني للمجهول، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى .والإخفاء هنا إخفاء تشريف وتكريم، وليس إخفاء إهمال .هو إخفاء الهدية الثمينة حتى موعد تسليمها، ليكون وقعها أعظم.
· "لَهُم": اللام للاختصاص والتشريف .هذا الجزاء خاص بهم، أعد لهم وحدهم، ولن يشاركهم فيه أحد.

التصوير العاطفي:
تخيل أبًا حنونًا أعد لابنه المجتهد هدية عظيمة، لم يرها أحد من قبل، ولم تخطر على بال أحد. أخفاها في مكان أمين، وجعل موعد تسليمها يوم التكريم. كم سيكون فرح الابن عندما يرى الهدية؟! هذا هو حال المؤمنين يوم القيامة. الله الرحيم الكريم يخبئ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فإذا دخلوا الجنة ورأوا ما أُعد لهم، طارت قلوبهم فرحًا وشكرًا.

.3"مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ" .. تشبيه حسي بالغاية في الجمال

· "قُرَّةِ": من القر، وهو البرودة .وقرة العين كناية عن شدة الفرح والسرور الذي يملأ القلب، فتبرد العين وتستقر ولا تطمح إلى شيء آخر .عكس "سخنة العين" التي تدل على الحزن والبكاء.
· "أَعْيُنٍ": جمع عين .والتنكير يفيد التعظيم .إنها قرة أعين تفوق كل وصف، لا تشبه أي قرة عين عرفها البشر في الدنيا.

التصوير الحسي:
تخيل أجمل لحظات الفرح في حياتك: يوم زواجك، يوم تخرجك، يوم ولادة طفلك الأول، يوم شفائك من مرض خطير... تلك اللحظات التي شعرت فيها أن عينك قرت، وأن قلبك ارتاح. الآن، اضرب هذه اللحظات في مليون، بل في ما لا نهاية له. ذلك الشعور جزء من ألف جزء مما أعده الله للمؤمنين في الجنة من قرة أعين.

قال بعض المفسرين: قرة الأعين تشمل:

· رؤية الله عز وجل: وهي أعظم قرة عين، كما قال تعالى:} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ {]القيامة:22 -.[23
· ما في الجنة من نعيم: حور عين، قصور، أنهار، فواكه، كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

.4"جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" .. ربط الجزاء بالعمل السابق

· "جَزَاءً": مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: "يُجزون جزاءً" .أو مفعول لأجله: أي أخفى لهم ذلك لأ جل الجزاء.
· "بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ": الباء للسببية ."ما" موصولة، أي: بالذي كانوا يعملونه في الدنيا من صالح الأعمال.
· "كَانُوا يَعْمَلُونَ": الفعل "كان" يدل على الاستمرار والدوام .لم يكونوا يعملون الصالحات مرة أو مرتين، بل كان ديدنهم وحالهم المستمر.

الرسالة العادلة:
الجزاء ليس عشوائيًا، بل هو نتيجة طبيعية وعدل إلهي. {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} يؤكد أن الجنة ليست بالأ ماني، بل بالعمل الصالح المستمر. لقد تجافت جنوبهم، ودعوا ربهم، وأنفقوا، فكان هذا جزاؤهم العظيم.
ثانياً: أمثلة واقعية من حياة النبي والصحابة والصالحين

المثال الأول: النبي صلى الله عليه وسلم .. وصية جبريل بقراءة الآية

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}".

· تطبيق عملي:
كان النبي صلى الله عليه وسلم يستحضر هذه الآية كلما تحدث عن الجنة ونعيمها .كان يعلم أن

الوصف مهما بلغ، لا يمكن أن يحيط بحقيقة ما أعده الله .وهذا يعلمنا التواضع في تصور الجنة، والا كتفاء بما ورد في النصوص، مع اليقين بأن الواقع أعظم وأجل.

المثال الثاني: أبو الدرداء رضي الله عنه .. وقيام الليل

كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: "لولا ثلاث ما أحببت البقاء في الدنيا: ظمأ الهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر".

· تطبيق الآية:
كان أبو الدرداء يجد قرة عينه في الدنيا في قيام الليل ومجالس العلم .فكيف إذا رأى قرة العين التي أخفاها الله له في الآخرة؟! هذا المثال يربط بين العمل في الدنيا) الذي هو قرة عين المؤمن هنا (والجزاء في الآخرة) الذي هو قرة عين أعظم.(

المثال الثالث: الإمام أحمد بن حنبل .. الصبر على البلاء

عندما ضُرب الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن، وسجن وعذب، كان يصبر ويحتسب. قيل له: "ألا تدعو على هؤلاء الظلمة؟". فقال: "أخاف أن يكون هذا عقوبة لي من الله، فأصبر على بلائه". ثم تمثل بهذه الآية: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}.

· تطبيق عملي:
كان الإمام أحمد يستمد صبره من اليقين بأن ما أعده الله للصابرين في الآخرة أعظم من كل ألم في الدنيا .وهذا هو الاستثمار الإيماني: تحويل الألم إلى رصيد أخروي، وانتظار قرة العين الخفية.

المثال الرابع: قصة واقعية معاصرة .. الأم المكلومة

أخبرتني امرأة صالحة أنها فقدت ابنها الوحيد في حادث، وكان شابًا بارًا حافظًا للقرآن. قالت: "كنت أظن أن الدنيا أظلمت في وجهي، حتى سمعت قول الله: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}. فقلت في نفسي: 'يا رب، لقد أخذت ابني، وأنا موقنة أنك أخفيت له في الجنة ما هو خير له مما كان فيه. وأسألك أن تجمعني به في جناتك، وأن تريني قرة عيني برؤيتك ورؤيته'. منذ تلك اللحظة، تحول حزني إلى طمأنينة وانتظار للقاء".

· درس عملي:
هذه الأم طبقت الآية في أشد لحظات حياتها ألمًا .استبدلت النظرة الأرضية) فقدان الابن (ب- النظرة السماوية) ما أخفاه الله له من قرة عين .(وهذا هو الشفاء الإيماني من مصائب الدنيا.
ثالثاً: الدروس المستفادة من الآية

الدرس الأول: اليقين بأن الجزاء أعظم من العمل

مهما اجتهدت في العبادة، ومهما أنفقت في سبيل الله، فاعلم أن ما أعده الله لك أعظم وأكبر. {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ}. هذا اليقين يمنعك من العجب بعملك، ويجعلك دائمًا متواضعًا، مستكثرًا لتقصيرك، مستصغرًا لطاعتك بجانب كرم الله.

الدرس الثاني: قيمة العمل الخفي

الجزاء الخفي {مَّا أُخْفِيَ لَهُم} هو ثمرة العمل الخفي في الدنيا. كلما أكثرت من الأعمال الصالحة التي لا يراها إلا الله (قيام الليل، صدقة السر، البكاء من خشية الله في الخلوة)، زاد رصيدك من قرة الأ عين المخفية في الجنة.

الدرس الثالث: الأمل المحرك للعمل

هذه الآية تزرع في قلب المؤمن أملا ً عظيمًا، وتدفعه إلى مزيد من العمل. عندما تعلم أن هناك كنزًا مخفيًا ينتظرك، وأن هذا الكنز يزداد بازدياد عملك الصالح، فإنك تشمّر عن ساعد الجد، وتقبل على الطاعات بشوق ونهم.

الدرس الرابع: الصبر على مرارة الدنيا

من عرف أن الله أخفى له قرة أعين في الآخرة، هانت عليه مرارة الدنيا ومصائبها. فقدان عزيز، مرض، فقر، ظلم... كلها تصبح خفيفة بالميزان الأخروي. بل قد يصل المؤمن إلى درجة يتمنى فيها البلاء ليزداد رصيده من هذه القرة المخفية.

الدرس الخامس: التوازن بين الخوف والرجاء

الآية تملأ القلب رجاءً في رحمة الله وفضله، ولكنها لا تنسيه الخوف من تقصيره. ففي قوله: {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} تذكير بأن هذا الجزاء خاص بـ الذين عملوا، لا بالذين تمنوا فقط. فلا بد من العمل لتنال هذا الفضل.
رابعاً: دور الآية ومفاهيمها في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولاً: في بناء الشخصية المسلمة (الجانب الفردي)

.1غرس روح الأمل والتفاؤل:
في عصر كثرت فيه الاكتئابات النفسية بسبب ضغوط الحياة، تأتي هذه الآية لتفتح نافذة أمل واسعة .الإنسان الذي يعلم أن له مستقبلًا مشرقًا في الآخرة، وأن هناك فرحة خفية تنتظره، لا تفتك به هموم الدنيا .هذه نظارة إيمانية يرى بها الحياة بألوان مختلفة.
.2تعزيز الدافعية للإنجاز) الحافز الأخروي(:
الإنسان بطبيعته يحتاج إلى حافز للعمل .بعضهم يحفزه المال، وبعضهم المنصب .والمؤمن يحفزه ما أخفاه الله له من قرة أعين .هذا الحافز لا ينضب، ولا ينتهي، لأنه متعلق بالأبدية والنعيم المطلق . إنه وقود العبادة المستمرة والعمل الدؤوب.
.3تقوية الصلابة النفسية في مواجهة الأزمات:
من أكبر أسباب الانهيار النفسي غياب المعنى أو الشعور بأن المصيبة نهاية المطاف .هذه الآية تعيد صياغة المعنى لكل مصيبة: إنها استثمار لمزيد من القرة المخفية .هذا الفهم يجعل المؤمن صلبًا في مواجهة الشدائد، لا تكسره الرياح.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم (الجانب الاجتماعي)

.1تقوية أواصر الأخوة والتسامح:
إذا أيقن المسلم أن ما أعده الله له من النعيم يفوق كل ما في الدنيا، فإنه يزهد في التنافس على حطام الدنيا، ويقل الحسد والبغضاء بين أفراد المجتمع .لماذا أحسد فلانًا على مال أو جاه، وما عند الله خير وأبقى؟! هذا الزهد يحرر المجتمع من الصراعات المادية المدمرة.
.2تشجيع العمل التطوعي والخيري:
الإيمان بـ} فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم {يدفع إلى الإنفاق والبذل، لأنه يعلم أن كل درهم ينفقه في سبيل الله، له مقابل خفي عظيم في الآخرة .هذا يخلق مجتمعًا سخيًا، يتسابق أفراده إلى فعل الخيرات.
.3إنتاج نماذج بشرية ملهمة) القدوات الصامتة(:
الذين يعيشون هذه الآية، هم أهل القلوب المطمئنة، الذين لا تلهبهم أطماع الدنيا، ولا تقلقهم تقلباتها .وجودهم في المجتمع مصدر أمان وإلهام .إنهم النماذج الصامتة التي تبث في المجتمع روح الأمل والثقة بالله.

ثالثاً: في بناء الحضارة (الجانب العمراني)

.1تحويل الدنيا إلى مزرعة للآخرة:
الحضارة الإسلامية قامت على مفهوم الاستخلاف وعمارة الأرض عبادة لله .هذه الآية تزيد هذا المفهوم رسوخًا .كل إنجاز حضاري) مدرسة، مستشفى، اختراع، فن جميل (إذا أريد به وجه الله، كان سببًا لزيادة قرة العين المخفية في الآخرة .هذا يربط العمران بـ الروح، فيجعل الحضارة راقية وإنسانية.
.2توجيه الطاقات نحو الإبداع النافع:
المؤمن الذي يرجو قرة العين الخفية، لا يرضى بأعمال دونية أو هدامة .إنه يبحث عن أعظم الأجر، وهذا الأجر يكون في أنفع الأعمال للخلق .لذلك تجد المبدعين المسلمين في التاريخ) أطباء، مهندسين، فلكيين (كانوا متهجدين بالليل، يطلبون بهذا الإبداع الأجر لا الشهرة.

رابعاً: في التنمية البشرية (الجانب التطويري)

.1إعادة تعريف النجاح والسعادة:
في دورات التنمية البشرية، يبحث الناس عن السعادة والنجاح .هذه الآية تقدم تعريفًا ربانيًا للسعادة الحقيقية: قرة العين في الآخرة .والنجاح الحقيقي: العمل الصالح الذي يوصل إليها .هذا التعريف يحرر الإنسان من سجن النجاح المادي) السيارة، المنصب، المظهر(، ويرتقي به إلى أفق النجاح الأبدي.
.2الاستثمار طويل الأجل) التخطيط الاستراتيجي الشخصي(:
الآية تعلم الإنسان التخطيط طويل الأجل جدًا، ليس لخمس سنوات، ولا لعشرين، بل للأبدية .كل عمل في الدنيا هو استثمار في رصيد الآخرة .وهذا يحفز على الاستمرارية والصبر وعدم اليأس من تأخر النتائج الدنيوية .فأنت لا تعمل لحصاد اليوم، بل لحصاد يوم لا ينفد نعيمه.
.3إدارة المشاعر السلبية وتحويلها إلى طاقة إيجابية:
بدل أن تستهلكك مشاعر الحزن أو الغضب أو الإحباط، حولها إلى طاقة عبادة، متذكرًا أن صبرك هذا سيكون له جزاء خفي لا تعلمه .هذه الآية ورشة عمل نفسية متكاملة، تمنحك القدرة على تحويل كل تحدٍ إلى فرصة لزيادة قرة عينك في الجنة.
خامسا: كيف نطبق هذه الآية في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1استحضر الوعد كلما ضعفت:
في لحظات الكسل عن الطاعة، أو الشعور بالملل من العمل الصالح، توقف، واقرأ هذه الآية بتدبر: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}. تخيل تلك المفاجأة العظيمة التي تنتظرك، وقل لنفسك: "أهذا الكسل يساوي تفويت هذا الكنز؟". ستجد همة جديدة تدفعك.

.2اربط كل عمل صالح بهذه القرة:
عندما تصدق، قل في سرك: "اللهم هذه صدقة، أرجو أن تكون سببًا في قرة عيني في الجنة". عندما تصلي ركعتين في الليل، قل: "اللهم اجعل هذه الركعتين نورًا وقرة عين لي يوم ألقاك". هذا الربط الذهني يحول كل عمل إلى رسالة حب إلى الله، وإلى استثمار في رصيدك الخفي.

.3في المصائب، افتح دفتر "قرة الأعين":
خصص دفترًا صغيرًا، أو ملاحظة في هاتفك، اكتب فيها: "مصائبي واستثماري الأخروي". كلما أصابتك مصيبة (مرض، هم، فقدان)، اكتبها، واكتب بجانبها: "اللهم هذه مصيبتي، فاجعل لي فيها قرة عين يوم القيامة". هذا التطبيق العملي سيحول مرارة المصيبة إلى حلاوة الأمل.

.4شجع غيرك بهذه الآية:
عندما ترى صديقًا محبطًا، أو مريضًا يائسًا، أو حزينًا على فقد عزيز، اقرأ عليه هذه الآية، وذكره بـ الكنز المخفي. قل له: "لا تدري ماذا أخفى الله لك من الأجر على صبرك هذا. لعل قرة عينك هناك أعظم مما فقدت هنا". هذه مواساة قرآنية لها أثر السحر في النفوس.

.5اجعلها وردًا في سجودك:
في سجودك، خاصة في صلاة الليل، أكثر من الدعاء: "اللهم إني أسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، وأسألك ما أخفيت لأوليائك الصالحين. اللهم لا تحرمنا خير ما عندك لشر ما عندنا".
خاتمة جامعة: رسالة الآية إلى قلبك

أيها العبد، يا من تلهث وراء سراب الدنيا، توقف قليلا ً، وانظر إلى الوعد الإلهي في هذه الآية. إنها صك من الرحمن، يخبرك أن هناك كنزًا لا يوصف ينتظرك، بشرط أن تكون من {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا}، ومن {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، ومن {يُنفِقُونَ}.

لا تدع هموم الدنيا تحجب عنك فرحة الآخرة. لا تدع شهوات الساعة تنسيك نعيم الأبد. اعمل اليوم في الخفاء، لتفرح غدًا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

القسم الرابع

المبحث الأول

أيها المتدبر، يا من وقفت على أعتاب الوعد الإلهي الخفي، ورأيت بأعين بصيرتك مشهد قرة الأعين التي أخفاها الله لعباده الصالحين... يأتي الآن السؤال الفاصل، والموازنة العادلة، والقانون الإلهي الذي لا يتغير: هل يستوي من سار على النور بمن تخبط في الظلام؟ إنها الآية التي تضع أمامك خيارين لا ثالث لهما، وتطلب منك أن تختار، ولكن بعد أن تسمع الحكم القاطع من رب العالمين.

بعد أن عرض الله صفات المؤمنين (السجود، التسبيح، قيام الليل، الدعاء، الإنفاق)، وبعد أن كشف عن جزائهم الخفي العظيم، يأتي هنا ليقرر الحقيقة الكبرى: أن هذا المؤمن لا يمكن أن يستوي مع من خالف طريقه، وعصى ربه، واتبع هواه. إنها آية العدل والإنصاف، التي ترفض التمييع والمساواة الزائفة بين الخير والشر، وبين البر والفجور، وبين الطاعة والمعصية.

تعال نعش مع قوله تعالى:
{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ (18)} [السجدة: 18]

تمهيد: الربط بين صفات المؤمنين وجزائهم وبين هذه المقارنة العادلة

في الآيات السابقة، رأيت نموذج المؤمن الصادق:

- قلبه خاشع لله:} إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا.{
- ليله معمور بالعبادة:} تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ.{
- يده سخية بالإنفاق:} وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ.{
- جزاؤه عند الله مخفي لا تعلمه نفس:} مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ.{

الآن، وبعد هذا العرض الكامل، يأتي السؤال الإلهي المفحم:
{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا}؟

وكأن الآية تقول: "بعد أن عرفتم صفات المؤمنين، وبعد أن رأيتم جزاءهم، هل يعقل أن نساوي بينهم وبين من كفر وعصى وفسق؟! حاشا لله!".

اللمسة التربوية:
هذا السؤال ليس استفسارًا عن معلومة، بل هو تقرير لحقيقة بديهية، واستنكار لأي فكر يخلط الأوراق ويساوي بين المصلح والمفسد، وبين المؤمن والفاسق. إنه يخاطب فطرتك التي تميز بين الخير والشر، ويخاطب عقلك الذي يرفض الظلم والمساواة بين المتناقضين.
أولا ً: تفسير الآية وبيان معانيها

1."أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا" .. الاستفهام الإنكاري التقريري

- الهمزة "أ": همزة استفهام، ولكنها هنا إنكار وتوبيخ .أي: أيعقل، أيصح، أيستقيم في عقل أو شرع أن يكون المؤمن كالفاسق؟!
- الفاء "فَ": للعطف والترتيب .أي: بعد كل ما تقدم من بيان صفات المؤمنين وجزائهم، هل يستويان؟!
- "مَنْ": اسم موصول بمعنى "الذي"، يشمل كل من اتصف بصفة الإيمان.
- "كانَ": فعل ماض ناقص، يفيد الثبوت والاستمرار .أي: من ثبت له الإيمان واستمر عليه، وليس من آمن لحظة ثم ارتد أو فسق .الإيمان هنا صفة راسخة في القلب والجوارح.
- "مُؤْمِنًا": خبر "كان" .وهو اسم فاعل من "آمن"، يدل على الاستقرار في الإيمان .المؤمن هو من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وصدق إيمانه بالعمل الصالح.

2."كَمَن كَانَ فَاسِقًا" .. الجانب المقابل

- "كَ": حرف جر يفيد التشبيه .والاستفهام الإنكاري ينفي هذا التشبيه نفياً قاطعاً.
- "مَنْ": اسم موصول يشمل كل فاسق.
- "كانَ": أيضاً تدل على الثبوت والاستمرار في الفسق.
- "فَاسِقًا": اسم فاعل من "فسق"، والفسق في اللغة: الخروج عن الطاعة والانحراف عن الجادة .وفي الشرع: الخروج عن أمر الله وطاعته، سواء بالكفر الأكبر أو بالمعاصي الكبيرة مع الإصرار.

المقارنة الدقيقة:
لاحظ أن الآية لم تقل: "أفمن كان مؤمناً كمن كان كافراً" فقط، بل قالت {فَاسِقًا}. لماذا؟

- لأن الفسق لفظ أوسع، يشمل الكافر والمسلم العاصي المصر على الكبائر .وهذا تحذير لكل مسلم: لا تظن أن المقارنة فقط مع الكفار، بل حتى المسلم الفاسق ليس كالمؤمن التقي، ولا يستويان في الجزاء ولا في المكانة عند الله.

التصوير الحي للمشهد (لوحة المقارنة):
أغمض عينيك، وتخيل معي شخصين:

· الأول: قلبه عامر بذكر الله، يمشي في الأرض هيناً ليناً، إذا سمع القرآن بكى، وإذا جن الليل قام لله يصلي ويدعو، وإذا رأى محتاجاً بذل من ماله .في وجهه نور، وفي قلبه سكينة، وفي حياته بركة . ينتظر قرة العين التي أخفاها الله له.
· الثاني: قلبه قاس كالحجارة، لا يبالي بحدود الله، يلهث وراء شهواته، ليله في لهو وغفلة، وماله في حرام أو بخل .في قلبه ضيق وقلق، وفي حياته شقاء وتعب، يخاف الموت لأنه لا يملك زاداً للقاء الله.

هل يستويان؟! {لَا يَسْتَوُونَ}.

.3"لَا يَسْتَوُونَ" .. الحكم القاطع والفصل النهائي

· "لَا": نافية للجنس، تفيد نفي الاستواء نفياً باتاً لا استثناء فيه.
· "يَسْتَوُونَ": فعل مضارع يفيد الاستمرار .أي: لا يستوون أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لماذا لا يستوون؟
الجواب: لأن الأسباب مختلفة، والغايات مختلفة، والجزاء مختلف.

· الأسباب مختلفة: المؤمن يستمد نوره من الوحي، والفاسق يتخبط في ظلمات الهوى.
· الغايات مختلفة: المؤمن يريد رضوان الله والجنة، والفاسق يريد متاع الدنيا الفاني.
· الجزاء مختلف: كما رأينا، للمؤمن قرة عين خفية، وللفاسق عذاب أليم) كما سيأتي في الآيات التالية.(

اللمسة العادلة:
هذا الحكم ليس تحيزاً أو تمييزاً عنصرياً، بل هو عدل مطلق. إنه كحكم المعلم الذي يعطي الدرجة النهائية للطالب المجتهد، والدرجة الصفر للطالب الكسول. هل يستويان؟ كلا، وإلا كان ذلك ظلماً للطالب المجتهد. فكيف بالله أحكم الحاكمين؟!
ثانياً: أمثلة تقريبية حسية لتوضيح المفهوم (كما طلبت)

لنجعل هذه الحقيقة القرآنية قريبة جداً من ذهنك، بعيدة عن التجريد، عبر أمثلة من حياتك اليومية:

المثال التقريبي الأول: البستاني والزارع (مثال زراعي)

تخيل بستانياً يملك قطعة أرض:

· الأول) المؤمن(: يحرث الأرض، ويزيل عنها الحجارة والأشواك، ويختار أفضل البذور، ويسقيها في أوقاتها، ويرعاها، ويحميها من الآفات.
· الثاني) الفاسق(: يهمل أرضه، ويرمي بذوراً رديئة، ولا يسقيها، ويترك الحشائش الضارة تنمو.

هل ستستوي النتيجة في نهاية الموسم؟

· الأول: سيحصد ثماراً يانعة، وزهوراً فواحة، وحديقة غناء .سيمتلئ فرحاً وسروراً بحصاده، وسيأكل من ثمره ويطعم غيره.
· الثاني: لن يحصد إلا شوكاً وحنظلا ً، وستكون أرضه قاحلة ميتة، وسيندم حيث لا ينفع الندم.

هكذا المؤمن والفاسق: المؤمن يزرع في دنياه بذور الطاعة، فيحصد في أخراه قرة العين. والفاسق يزرع بذور المعصية، فيحصد الندم والخسران. {لَا يَسْتَوُونَ}.
المثال التقريبي الثاني: المسافر في رحلة طويلة (مثال حياتي)

تخيل مسافرين في رحلة طويلة عبر صحراء موحشة:

· الأول) المؤمن(: معه خريطة دقيقة) القرآن(، وبوصلة) السنة(، ودليل خبير) الرسل(، وزاد وافر) العمل الصالح .(يعرف طريقه، ويأمن على نفسه، ويسير بثبات وطمأنينة.

· الثاني) الفاسق(: ترك الخريطة والبوصلة، وسار على غير هدى، يتخبط في الرمال، لا يعرف أين يذهب .زاده قليل، وقلبه مملوء بالخوف والقلق.

عندما تشتد الحرارة، وتهب العواصف، أيهما سينجو؟ أيهما سيصل إلى واحة الأمان؟

· الأول: سيصل إلى واحة ظليلة، فيها ماء بارد وطعام طيب، ويستريح من عناء السفر.
· الثاني: سيضل الطريق، وينقطع به الزاد، ويهلك في الصحراء.

هكذا الدنيا: رحلة طويلة إلى الله. المؤمن معه هدى الله، فيسير آمناً مطمئناً. والفاسق في ضلال وهلاك. {لَا يَسْتَوُونَ}.

المثال التقريبي الثالث: بناء منزل على أساسين مختلفين (مثال عمراني)

تخيل رجلين بنيا منزلين:

· الأول) المؤمن(: اختار أرضاً صلبة، وحفر حتى وصل إلى الصخر، ثم وضع أساساً قوياً من الحديد و الإسمنت، ثم بنى بناءً محكماً.
· الثاني) الفاسق(: استعجل، وبنى على رمال متحركة، بلا أساس، وبمواد رديئة.

عندما تأتي العواصف والزلازل، ماذا سيحدث؟

· بيت الأول: سيثبت، ويقف شامخاً، ويحمي ساكنيه.
· بيت الثاني: سينهار، ويردّم على ساكنيه.

هكذا الإيمان: هو الأساس الصلب الذي تبنى عليه الحياة. كل عمل صالح هو لبنة في بناء قصرك في الجنة. وكل معصية هي شق في جدار هذا البناء. {لَا يَسْتَوُونَ}.
المثال التقريبي الرابع: المصباح المضيء والمصباح المظلم (مثال حسي)

تخيل مصباحين:

· الأول) المؤمن(: موصول بالكهرباء) الوحي(، نظيف زجاجه) القلب السليم(، قوي نوره يضيء ما حوله.
· الثاني) الفاسق(: مقطوع عن الكهرباء) مقطوع عن الله(، زجاجه متسخ بغبار المعاصي، لا نور فيه و لا هدى.

في الظلام الدامس، أيهما ينفع صاحبه؟ أيهما يهدي السائرين؟

· الأول: نوره يبدد الظلام، ويظهر الطريق، ويطمئن النفوس.
· الثاني: لا فائدة منه، بل هو عبء على صاحبه، وربما كان سبباً في عثرة الآخرين.

هكذا المؤمن: نور في نفسه، ونور لغيره. {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [الأنعام: 122]. {لَا يَسْتَوُونَ}.

ثالثاً: الدروس المستفادة من الآية

الدرس الأول: رفض المساواة بين الخير والشر

هذه الآية تؤصل مبدأ التفريق والتمييز بين أهل الحق وأهل الباطل. في زمن يحاول البعض فيه تمييع القيم، ونسبية الأخلاق، ويزعمون أن كل الطرق تؤدي إلى الله، يأتي القرآن ليقرر: {لَا يَسْتَوُونَ}. لا يستوي المؤمن والفاسق، لا في الميزان الإلهي، ولا في نظر العقلاء.

الدرس الثاني: الإيمان ليس مجرد ادعاء، بل هو آثار وثمار

الآية تجعل الإيمان والفسق عنوانين لصفات وأعمال. فالمؤمن ليس من قال "آمنت" فقط، بل من ظهرت عليه ثمرة الإيمان (كما في الآيات السابقة). والفاسق ليس فقط من قال "كفرت"، بل من ظهرت عليه ثمرة الفسق من ترك الطاعات وفعل المحرمات.

الدرس الثالث: عدل الله في الجزاء

}لَا يَسْتَوُونَ {هي كلمة عدل .الله لا يظلم أحداً .لو ساوى بين المؤمن والفاسق في الجزاء، لكان ذلك ظلماً عظيماً للمؤمن .لكن الله حكم عدل، لا يجعل بر الوالدين كعقوقهما، ولا يجعل الصدقة كالسرقة، ولا يجعل قيام الليل كالسهر على الحرام.

الدرس الرابع: دعوة للتأمل الذاتي والاختيار الواعي

الآية تدعوك أن تضع نفسك في الميزان. اسأل نفسك بصدق: "أين أنا من هذين الرجلين؟" هل أنا أقرب إلى صفات المؤمنين: السجود، قيام الليل، الدعاء، الإنفاق؟ أم أنا في غفلة وفسق؟ الآية تجعلك تواجه نفسك، وتختار أي الفريقين تريد أن تكون.

الدرس الخامس: معيار التفاضل الحقيقي

في الدنيا، يتفاضل الناس بالمال والجمال والنسب. لكن الآية تخبرك أن المعيار الحقيقي عند الله هو ا لإيمان والعمل الصالح. لا قيمة للون أو الجنس أو الثروة، بل القيمة كلها في {مُؤْمِنًا} أو {فَاسِقًا}. هذا يحررك من عبودية المظاهر، ويوجهك إلى الجوهر.
رابعاً: دور الآية ومفاهيمها في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولا ً: في بناء الشخصية المسلمة (الجانب الفردي)

.1صناعة الضمير الحي والمعيار الداخلي:
الآية تزرع في نفس المسلم معياراً واضحاً للتفريق بين الحق والباطل .يصبح لديه بوصلة داخلية مستمدة من القرآن: كل فعل يقرّبه من صفات المؤمنين فهو خير، وكل فعل يقرّبه من صفات الفاسقين فهو شر .هذا المعيار يحميه من التيه الفكري والأخلاقي.
.2تقوية العزة الإيمانية والثقة بالنفس:
عندما يوقن المؤمن أنه ليس كالفاسق، وأنه في طريق مختلف تماماً، فإنه يشعر بالعزة والكرامة . لا يهتز أمام ضغوط الفاسقين، ولا يخجل من التزامه، بل يرفع رأسه بإيمانه .إنه يعيش معنى} وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ] {المنافقون:.[8
.3توجيه الطاقة نحو الاستزادة من الخير:
الإحساس بالفارق الكبير بين الفريقين يدفع المؤمن لمضاعفة جهده في الطاعات .كلما رأى فسق الفاسقين، ازداد شكراً لله على نعمة الهداية، وازداد حرصاً على ألا ينزلق إلى طريقهم.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم (الجانب الاجتماعي)

.1ترسيخ مبدأ الثواب والعقاب الاجتماعي:
المجتمع الذي يؤمن ب{ لَا يَسْتَوُونَ}، هو مجتمع يميز بين المحسن والمسيء، ويكافئ المحسن، ويردع المسيء .لا يترك المجرمين يعيثون في الأرض فساداً دون عقاب، ولا يهمل المصلحين دون تقدير .هذا عدل اجتماعي يمنع انتشار الفوضى والانحلال.
.2بناء القدوة الحسنة والمثل الأعلى:
الآية تقدم نموذج المؤمن) بصفاته المذكورة سابقاً (كـ مثال أعلى يحتذى به في المجتمع .الناس تتطلع إلى المؤمنين الصادقين، فتتشبه بهم، فيعم الخير .وفي المقابل، تقدم نموذج الفاسق كنموذج منفر يجب تجنبه .هذا يخلق جاذبية للخير ونفوراً من الشر.
.3حماية المجتمع من الأمراض الأخلاقية:
حين يترسخ في وعي المجتمع أن} لَا يَسْتَوُونَ}، يضعف تأثير المفسدين والدعاة إلى الرذيلة .لأن المجتمع ينظر إليهم على أنهم شاذون عن القاعدة، وليسوا سواء مع الصالحين .هذا حصانة أخلاقية للمجتمع.

ثالثاً: في بناء الحضارة (الجانب العمراني)

.1توجيه الحضارة نحو القيم الإنسانية الرفيعة:
الحضارة التي تقوم على أساس} لَا يَسْتَوُونَ {بين الخير والشر، هي حضارة أخلاقية .تكرّم العلماء والمخترعين الذين يخدمون البشرية، وتدين المحتالين والمخربين .تفرق بين الإبداع النافع والإفساد المدمر، فلا تخلط بينهما.

.2إنتاج مجالات تنافس في الخير:
الإيمان بأن المؤمن لا يستوي مع الفاسق، يخلق روح التنافس الإيجابي في المجتمع .الناس تتسابق في الخيرات، في العلم، في العمران، في الصدقات، لأنهم يعلمون أن درجاتهم عند الله تتفاوت بتفاوت أعمالهم .هذا التنافس هو محرك الحضارة.

رابعاً: في التنمية البشرية (الجانب التطويري)

.1إعادة تعريف النجاح والفشل:
في التنمية البشرية، يبحث الناس عن معايير للنجاح .هذه الآية تقدم المعيار الأصدق: النجاح الحقيقي هو أن تكون مؤمناً) موصولا ً بالله، عاملا ً صالحا(، والفشل الحقيقي هو أن تكون فاسقاً)مقطوعاً عن الله، غارقاً في المعاصي .(هذا التعريف يحرر الإنسان من قلق المقاييس المادية البحتة)المال، المنصب.(
.2تحفيز النمو الشخصي المستمر:
عندما تدرك أنك لست سواء مع من هو دونك في الإيمان والعمل، فإن هذا يدفعك إلى النمو و التطور .تريد أن ترتقي في مراتب الإيمان، وتزيد من صفات المؤمنين في نفسك .تريد أن تكون أقرب إلى النموذج القرآني للمؤمن، وأبعد عن صفات الفاسقين .هذا دافع داخلي قوي للتنمية الذاتية.
.3تعزيز ثقافة المسؤولية الفردية:
{ لَا يَسْتَوُونَ} تذكر كل فرد أنه مسؤول عن نفسه، وأنه سيحاسب وحده .لا يمكنه أن يتكل على غيره، أو أن يقول "كل الناس يفعلون كذا" .إنه وحده سيحدد أي الفريقين ينتمي .هذه المسؤولية الفردية هي حجر الزاوية في أي نهضة تنموية حقيقية.
خامساً: كيف نطبق هذه الآية في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1وقفة تقييم يومية:
في نهاية كل يوم، قف مع نفسك وقفة صادقة، واسألها: "هل كانت أفعالي اليوم أقرب إلى أفعال المؤمنين أم إلى أفعال الفاسقين؟". هذه الوقفة تمنع الغفلة، وتجعلك تعيش الآية في كل لحظة.

.2اتخاذ قرارات حياتية بناءً على الآية:
عندما تواجه خياراً بين عملين، أحدهما يرضي الله والآخر يرضي هواك، تذكر: {لَا يَسْتَوُونَ}. هذا العمل الطيب ليس كالعمل السيئ. اختر ما يقرّبك إلى صفات المؤمنين.

.3التعامل مع الناس بهذا الميزان:
لا تساوي في قلبك بين الصالح والطالح، بين المستقيم والمنحرف. أحب الصالحين وأجلهم، وانصح المخطئين، ولكن لا تجعل حبهم في قلبك سواء. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنا نعرف فضل ذوي الأحساب، ولكننا لا نرفع رجلا ً فوق قدره". هذا من فقه الآية.

.4التربية الأسرية على الفرقان:
علم أولادك أن {لَا يَسْتَوُونَ}. اشرح لهم الفرق بين الولد المؤمن والولد الفاسق، بين البنت الصالحة و البنت المهملة. واجعل من الآية مرجعاً في التوجيه والثواب والعقاب.

.5الدعاء بالثبات على الإيمان:
أكثر من دعاء: "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، واجعلني من المؤمنين الصادقين، وجنبني طرق الفاسقين". فالإيمان نعمة عظيمة، والفسق خطر داهم، ولا ملجأ من الله إلا إليه.
خاتمة جامعة: رسالة الآية إلى قلبك

أيها العبد، لقد وضع الله أمامك طريقين، وأعطاك العقل والسمع والبصر، وأرسل إليك الرسل والكتب. و الآن يخبرك بحكمه العادل: {لَا يَسْتَوُونَ}.

لا تظن أن التسويف سيجعلك في مأمن. لا تظن أن الاختلاط بالفاسقين ومجاراتهم سيجعلك سواء معهم في الدنيا فقط، بل إن عدم الاستواء في الآخرة أشد وأبقى.

اختر لنفسك أن تكون مؤمناً حقاً، تظهر عليك صفات المؤمنين: السجود، التهجد، الدعاء، الإنفاق، التواضع. واهرب من الفسق وأهله هروبك من الأسد. واعلم أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ً.
المبحث الثاني
أيها المتدبر، يا من وقفت على المفارقة العظمى بين المؤمن والفاسق، وأيقنت بحكم الله العدل: {لَا يَسْتَوُونَ}... ها أنت الآن تدخل إلى دار الضيافة الإلهية، وترى بأعين بصيرتك المقر النهائي الذي أعده

الله لعباده المؤمنين. بعد أن نفى الاستواء بين الفريقين، يأتي هنا ليخبرك عن مصير المؤمنين بـ التفصيل، ليطمئن قلبك، وليزداد شوقك، ولتزداد يقينًا بأن ما ينتظرك هناك يفوق كل وصف.

إنها الآية التي تفتح لك باب المأوى، المكان الذي تأوي إليه بعد عناء الدنيا، وتستريح فيه من تعب الطريق. تعال نعش مع قوله تعالى:

}أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] {(19) السجدة:[19
تمهيد: الربط بين آية عدم الاستواء وآية جزاء المؤمنين

في الآية السابقة، قال الله: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ}. كان هذا حكمًا عامًا. وهنا، في هذه الآية، يأتي تفصيل جزاء أحد الفريقين، وهم المؤمنون. وكأن الآية تقول لك: "تريد أن تعرف لماذا لا يستوون؟ انظر ماذا أعددت للمؤمنين، وستعرف أن الفارق بينهم وبين الفاسقين كما بين السماء والأرض".

ثم إن الآية هنا تذكر سببين لنيل هذا الجزاء:

.1الإيمان: وهو عمل القلب.
.2العمل الصالح: وهو عمل الجوارح.

وهذا يؤكد أن الإيمان الحقيقي لا ينفك عن العمل، وأن الجنة ليست بالأماني، بل بالإيمان والعمل.

اللمسة التربوية:
هذا الربط يعلمك أن الجزاء من جنس العمل. كما آمنوا وعملوا الصالحات، جازاهم الله بجنات المأوى. وكما كان عملهم دائمًا ومستمرًا، كان جزاؤهم نزلًا دائمًا لا ينقطع.
أولا ً: تفسير الآية وبيان معانيها

.1"أَمَّا" .. حرف التفصيل بعد الإجمال

· "أَمَّا": حرف تفصيل وشرط .وهي هنا لتفصيل ما أُجمل في قوله:} لَّا يَسْتَوُونَ .{كأن سائلا ً سأل: "وما هو جزاء المؤمنين تحديدًا؟" .فجاء الجواب:} أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا.{...
· اللمسة البيانية:
"أما" تفيد الاهتمام والعناية بما بعدها .إنها تفتح باب الأمل للمؤمن، وتجعله يصغي بكل جوارحه ليعرف ما أعد الله له.

.2"الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" .. هوية أهل الجنة

· "آمَنُوا": فعل ماضٍ يفيد ثبوت الإيمان في القلب .الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.
· "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ": عطف العمل على الإيمان .الصالحات جمع صالحة، وهي كل عمل يرضي الله، سواء كان واجبًا أو نافلة، وسواء كان قاصرًا على النفس أو متعديًا للغير.
· اللمسة التربوية:
الترتيب هنا مهم جدًا: الإيمان أولا ً، ثم العمل .لأن العمل بلا إيمان هباء منثور، والإيمان بلا عمل دعوى فارغة .والجمع بينهما هو مفتاح الجنة.

.3"فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ" .. المسكن الأبدي والمقر النهائي

· "فَلَهُمْ": الفاء للسببية، أي: بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، لهم هذا الجزاء العظيم.
· "جَنَّاتُ": جمع جنة، وهي البستان العظيم الذي تظلله الأشجار، وتجري من تحته الأنهار .والجمع يفيد الكثرة والتنوع.
· "الْمَأْوَىٰ": اسم مكان من "أوى"، بمعنى رجع وآب واستقر .المأوى هو الملجأ والمسكن الذي يأوي إليه الإنسان بعد تعب السفر، فيجد فيه الراحة والأمان والاستقرار.

التصوير الحي للمشهد:
تخيل نفسك مسافرًا في طريق طويل، مليء بالمشقة والعناء. تتعاقب عليك الليالي والأيام، وأنت تسير تحت الشمس الحارقة، وفي البرد القارس، وتواجه المخاطر والعقبات. كلما تعبت، تمنيت لو تجد

مكانًا تأوي إليه، تستريح فيه، وتلقي بعصاك، وتشعر بالأمان.

ثم، بعد عناء طويل، تصل إلى دار المأوى. تفتح بابها، فإذا أنت في مكان لا يوصف جماله: هواء عليل، ونسيم رطب، وأشجار باسقة، وأنهار جارية، وقصور مشيدة، وكل ما حولك يدعو إلى الراحة و السعادة. تخلع نعليك، وتلقي بنفسك على الأرائك، وتقول: "الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، هذا هو المأوى الذي طالما حلمت به".

هذا هو {جَنَّاتُ المَأْوَى}. إنها الملجأ الأخير، والدار الآمنة التي لا خوف فيها ولا حزن ولا تعب. يأوي إليها المؤمن بعد رحلة الدنيا الشاقة، فيجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

الفرق بين المأوى الدنيوي والمأوى الأخروي:
في الدنيا، كل مأوى مؤقت. البيت الذي تسكنه قد تخرج منه، والفندق الذي تنزل فيه قد تغادره. أما {جَنَّاتُ المَأْوَى} فهي مأوى أبدي، لا خروج منه، ولا زوال لنعيمه. إنها دار القرار ودار المقامة.

.4"نُزُلًا" .. تكريم الضيافة الإلهية

· "نُزُلًا": اسم من "النزل"، وهو ما يُعد للضيف من طعام وشراب وإكرام عند قدومه .في لغة العرب، كانوا إذا قدِم عليهم ضيف، أعدوا له النزل، أي: بادروا بإكرامه وتقديم أفضل ما عندهم له.
· الإعراب: يجوز أن تكون "نُزُلًا" حالا ً من "جنات"، أي: هيئة نزل .أو مفعولا ً مطلقًا، أي: أنزلهم الله جنات المأوى إنزالا ً.

التصوير الحي للمشهد (مشهد الاستقبال الحافل):
تخيل أنك مدعو إلى وليمة عظيمة عند ملك كريم. عندما تصل إلى باب القصر، تجد الخدم في انتظارك، يبتسمون في وجهك، ويأخذون بيدك، ويدخلونك إلى قاعة كبرى مفروشة بأفخر الفرش. ثم يقدمون لك ألوان الطعام والشراب التي لم تر مثلها في حياتك. يقولون لك: "هذا نزلك، أعددناه لك خصيصًا تكريمًا لقدومك".

هذا هو معنى {نُزُلًا}. الله سبحانه أكرم الأكرمين، ينتظر قدوم عباده المؤمنين إلى جناته، وقد أعد لهم النزل الذي يليق بكرمه. إنهم ليسوا مجرد ساكنين في الجنة، بل هم ضيوف مكرمون، يحظون بحفاوة استقبال إلهية.

الفرق بين النزل الدنيوي والنزل الأخروي:
في الدنيا، النزل مؤقت، قد يأكله الضيف ثم يرحل. أما نزل الجنة فهو دائم مستمر، يتجدد ولا ينفد. وفي الدنيا، قد ينسى المضيف ضيفه أو ينشغل عنه، أما الله الحي القيوم فلا ينسى عباده أبدًا.

.5"بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" .. ربط الجزاء بالعمل

· "بِمَا": الباء للسببية .أي: بسبب الذي كانوا يعملونه في الدنيا.
· "كَانُوا يَعْمَلُونَ": "كان" تدل على الاستمرار والدوام .لم يكونوا يعملون الصالحات مرة أو مرتين، بل كان ديدنهم وحالهم المستمر.

الرسالة العادلة:
هذه الجملة تؤكد أن الجنة ليست محاباة، بل هي جزاء عادل لما قدمته أيديهم. لقد عملوا في الدنيا، فاستحقوا هذا النزل الكريم. وكأن الآية تقول لك: "لا تظن أن الجنة تنال بالتمني، بل بالعمل الصالح المستمر".
ثانياً: أمثلة تقريبية حسية لتوضيح المفهوم (كما طلبت)

لنجعل هذه الحقيقة القرآنية قريبة جدًا من ذهنك، بعيدة عن التجريد، عبر أمثلة من حياتك اليومية:

المثال التقريبي الأول: العامل المخلص وصاحب المصنع (مثال عملي)

تخيل عاملا ً مخلصًا يعمل في مصنع كبير:

· يأتي كل يوم في موعده، ويؤدي عمله بإتقان وأمانة، ويتحمل مشقة العمل وضغطه، ويسهر على مصلحة المصنع.

. وفي نهاية مسيرته، يقرر صاحب المصنع أن يكافئه .لا يعطيه مكافأة نقدية فقط، بل يقول له: "لقد أعددت لك بيتًا فاخرًا بجوار المصنع، تأوي إليه أنت وأسرتك، وتقيم فيه بقية عمرك، وكل ما في البيت من طعام وشراب وخدم فهو على حسابي الخاص .هذا نزلك تكريمًا لوفائك وإخلاصك".

هكذا المؤمن: هو العامل المخلص في مصنع الدنيا. يؤدي عمله (العبادة) بإتقان، ويصبر على مشقة الطاعة. فيكافئه الله بجنات المأوى، ويقول له: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: 24].
المثال التقريبي الثاني: الابن البار والوالد الكريم (مثال أسري)

تخيل ابنًا بارًا بوالديه، يخدمهما في كبرهما، ويسهر على راحتهما، ويتحمل أعباءهما. وعندما يقترب من نهاية حياته، يقول له والده: "يا بني، لقد رأيت برك وإحسانك. وقد أعددت لك غرفة خاصة في بيتي، مزينة بأجمل الأثاث، وفيها كل ما تحب. إذا انتهى عملك في الدنيا، تعال إليّ، فهذا مأواك ونزلك".

هكذا المؤمن: بار بربه، مطيع لأوامره. والله أرحم الراحمين، يكافئه بجنات المأوى، ويقول له: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: 27-30].
المثال التقريبي الثالث: الجندي العائد من المعركة (مثال وطني)

تخيل جنديًا قضى سنوات في الجبهة، يقاتل في سبيل وطنه، ويتحمل الجوع والبرد والخوف. ثم تعود الكتيبة منتصرة إلى الوطن. وعند بوابة المدينة، تجد حشود المستقبلين، وقد نصبوا خيامًا جميلة ، وأعدوا الموائد، ورفعوا اللافتات: "مرحبًا بالأبطال، هذا مأواكم ونزلكم تكريمًا لتضحياتكم".

هكذا المؤمن: هو مجاهد في سبيل الله، يصارع نفسه وهواه وشيطانه. فإذا انتهى جهاده، استقبلته الملائكة في الجنة: {سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 24].
المثال التقريبي الرابع: الفندق الفاخر بعد رحلة شاقة (مثال سياحي)

تخيل أنك سافرت إلى بلد بعيد، وركبت طائرة لساعات طويلة، ثم حافلة متعبة، حتى وصلت إلى فندق فاخر من فئة خمس نجوم. تدخل إلى البهو، فإذا الموظفون يستقبلونك بابتسامة وترحاب، ويقولون: "غرفتك جاهزة، وقد أعددنا لك مشروبات باردة وفواكه طازجة. هذا نزلك، نتمنى لك إقامة سعيدة". تدخل غرفتك، فتجدها باردة نظيفة، مطلة على منظر خلاب. ترمي بنفسك على السرير الوثير ، وتقول: "يا لها من راحة بعد هذا العناء!".

هكذا الجنة: هي فندق الله الفاخر، الذي أعده لعباده بعد رحلة الدنيا المتعبة. هناك لا تعب ولا نصب، بل راحة أبدية، ونزل كريم لا ينقطع.
ثالثًا: الدروس المستفادة من الآية

الدرس الأول: الجنة ثمرة الإيمان والعمل، لا التمني

الآية تؤكد: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}. لم تقل: "الذين تمنوا الجنة" ولا "الذين قالوا ربنا الله". لا بد من اقتران الإيمان بالعمل. وهذا درس عملي: لا تركن إلى الأماني، بل شمّر عن ساعد الجد، واعمل لآخرتك.

الدرس الثاني: المأوى الحقيقي عند الله وحده

في الدنيا، يبحث الإنسان عن المأوى: بيت آمن، وظيفة مستقرة، علاقات مطمئنة. لكن كل هذه مآوٍ مؤقتة تزول. الآية توجه قلبك إلى المأوى الحقيقي: {جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ} التي لا زوال لها. وهذا يحررك من التعلق المفرط بالدنيا، ويجعلك تعيش فيها كمسافر، لا كمقيم دائم.

الدرس الثالث: كرم الله يفوق كل تصور

}ثرًا {كلمة تفيض بالكرم والحفاوة .الله لا يعطي عباده الجنة فقط، بل يستقبلهم فيها استقبال الضيوف الأعزاء، ويكرمهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت .هذا الكرم الإلهي يملأ قلب المؤمن شكرًا وحبًا لله.

الدرس الرابع: العمل الصالح هو رأس مالك في الآخرة

}بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {تذكرك أن كل عمل صالح في الدنيا هو استثمار في الآخرة .لا تحتقر شيئًا من الخير، فربما كانت كلمة طيبة أو صدقة صغيرة أو ركعتان في جوف الليل هي سبب نزلك في الجنة.

الدرس الخامس: الاستمرارية في العمل الصالح مفتاح النزل الدائم

}كَانُوا يَعْمَلُونَ {بصيغة كان الدالة على الاستمرار .ليس المطلوب عملا ً صالحًا في رمضان فقط، ثم غفلة بقية العام .المطلوب دوام العمل الصالح، ولو كان قليلا ً."أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل".

رابعاً: دور الآية ومفاهيمها في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولا ً: في بناء الشخصية المسلمة (الجانب الفردي)

.1غرس روح الأمل والتفاؤل بالمستقبل:
في عصر يموج بالقلق على المستقبل، تأتي الآية لتمنح المؤمن يقينًا بمستقبل مشرق مضمون . مهما كانت ظروفك في الدنيا صعبة، فإن} جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ {تنتظرك .هذا الأمل يزيد مناعة النفس ضد اليأس والإحباط.
.2تحفيز الإنتاجية في الحياة الدنيا:
من يعلم أن له نزلًا كريمًا في الآخرة، يحرص على أن يكون نزله في الدنيا) بيته، عمله، مجتمعه (لائقًا به كمسلم .لا يرضى بالدون، ولا يقبل بالفساد، لأنه يتدرب على النعيم بالطاعة والإحسان.
.3توجيه بوصلة السعي نحو الآخرة:
بدل أن يلهث الإنسان وراء سراب الدنيا، تذكره الآية أن} جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ {هي الهدف الحقيقي .هذا التوجيه يحرر الإنسان من الاستعباد للمادة، ويجعله يعيش التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم (الجانب الاجتماعي)

.1تعزيز قيم الإحسان والجودة في العمل:
إذا كان الجزاء في الآخرة} نُزُلًا {كريمًا، فإن المؤمن يحاكي هذا الكرم في تعامله مع الناس .يكون كريمًا في أخلاقه، مجودًا في عمله، محسنًا في خدمة مجتمعه .هذا يبني مجتمعًا راقيًا يعمه الخير.
.2تقوية التكافل الاجتماعي عبر مفهوم "النزل":
} نُزُلًا {يذكرنا بواجب إكرام الضيف ورعاية المحتاج .المجتمع الذي يتربى أفراده على هذه الآية، يكون مجتمعًا مضياقًا، يرعى الأيتام والأرامل والمساكين، ويجعل لهم نزلًا في الدنيا قبل الآخرة.
.3الحد من الجريمة والانحراف:
الذي يعلم أن هناك} جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ {تنتظره، وأنها} نُزُلًا {لعمله الصالح، لن يفرط في هذه الجنة من أجل شهوة عابرة أو مال حرام .هذا الوازع الديني هو أقوى رادع عن الجريمة.

ثالثاً: في بناء الحضارة (الجانب العمراني)

.1توجيه الحضارة نحو الرفاهية الروحية والمادية المتوازنة:
الجنة فيها نعيم روحي) رضوان الله (ونعيم مادي) جنات، أنهار، فواكه .(هذه الآية ترسم للحضارة نموذجًا متوازنًا: لا تكون حضارة مادية بحتة تهمل الروح، ولا روحانية صوفية تهمل العمران .بل عمران يرضي الله ويخدم الإنسان.
.2إلهام العمران الجميل:
وصف} جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ {و}نُزُلًا {يلهم المسلمين لتجميل مدنهم وبيوتهم، وجعلها مأوى للناس، ونزلًا للمسافرين .التاريخ الإسلامي مليء بالقصور والحدائق والمكتبات التي استلهمت من وصف الجنة.

رابعاً: في التنمية البشرية (الجانب التطويري)

.1إدارة المشاعر السلبية عبر استحضار "المأوى":
عند الشعور بالضيق أو القلق أو الخوف من المستقبل، استحضر} جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ .{هذا الاستحضار يبدد المشاعر السلبية، ويملأ القلب سكينة وطمأنينة .إنه علاج نفسي رباني.
.2تطوير عقلية الوفرة والكرم:
الإيمان بأن الله سيمنحك} نُزُلًا {لا ينفد، يجعلك كريمًا في الدنيا .لا تخشى الفقر من الإنفاق، لأنك تثق في كرم الله .هذه عقلية الوفرة هي أساس النجاح المالي والاجتماعي.

.3بناء ثقافة الامتنان والشكر:
عندما تتذكر أن} جَنَّاتُ المَأْوَىٰ {هي} بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{، فإنك تشكر الله على نعمة التوفيق للعمل الصالح، وتستزيد من فضله .هذا الامتنان يزيد النعم كما قال تعالى:} لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ.{
خامساً: كيف نطبق هذه الآية في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1اجعل الآية نصب عينيك في كل عمل:
قبل أن تبدأ أي عمل، اسأل نفسك: "هل هذا العمل يقربني من {جَنَّاتِ المَأْوَىٰ}؟ هل هو من الصالحات التي تزيد {نُزُلًا} في الجنة؟". هذا السؤال يصقل النية ويوجه العمل.

.2استحضر مشهد الاستقبال في الجنة:
كلما شعرت بالتعب من الطاعة، أو الملل من العمل الصالح، أغلق عينيك، وتخيل مشهد الاستقبال في الجنة. تخيل الملائكة تبتسم لك، وتقول: "هذا نزلك، أعددناه لك". هذا الاستحضار يعطيك طاقة جديدة للمواصلة.

.3حول بيتك إلى "مأوى" مصغر:
اجعل من بيتك مأوى لأهلك، مكانًا يشعرون فيه بالأمان والراحة والمحبة. واجعل من كرم الضيافة شعارًا لك: أطعم الطعام، وأكرم الضيف، ووسع على أهلك. فأنت تتدرب على أخلاق الجنة في الدنيا.

.4استثمر في "صندوق النزل الأخروي":
خصص مبلغًا شهريًا، ولو صغيرًا، تنفقه في وجوه الخير الخفية: كفالة يتيم، صدقة سر، مساعدة محتاج. وسمِّ هذا الصندوق "صندوق النزل". وكلما وضعت فيه مالا ً، قل: "اللهم هذا استثمار لنزلي في جنات المأوى".

.5الدعاء بهذه الآية:
أكثر من الدعاء: "اللهم إني أسألك جنات المأوى، وما قرب إليها من قول وعمل. اللهم اجعلني من الذين إذا قدموا عليك أكرمتهم بنزلك الكريم. اللهم لا تحرمني النزل يوم لقائك".
خاتمة جامعة: رسالة الآية إلى قلبك

أيها العبد، هذه الآية هي بطاقة دعوة شخصية من الله لك. إنها تخبرك أن {جَنَّاتِ المَأْوَىٰ} تنتظرك، وأن {نُزُلًا} كريمًا قد أعد لك، بشرط أن تؤمن وتعمل صالحًا.

لا تدع الدنيا تخدعك بمآويها الزائفة، ولا تنشغل بنزلها الفاني. تذكر أن المأوى الحقيقي هو عند الله، وأن النزل الدائم هو في جنته. فاعمل لهذا المأوى، واستعد لهذا النزل.
المبحث الثالث
أيها المتدبر، يا من رأيت بعين قلبك جنات المأوى التي أعدها الله للمؤمنين، ويا من ذقت حلاوة الوعد الإلهي بـ النزل الكريم... ها أنت الآن تقف على المشهد المقابل، مشهد العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدًا. فكما بين الله مأوى المؤمنين وضيافتهم، يبين هنا مأوى الفاسقين وعذابهم. وكما فتح باب الرجاء للمؤمنين، يفتح هنا باب الإنذار للمعرضين.

ثم يأتي بعد ذلك سر عجيب من أسرار رحمة الله بعباده، حيث يذكر العذاب الأدنى في الدنيا، ليكون جرس إنذار قبل العذاب الأكبر في الآخرة. ثم يختم هذه السلسلة بأظلم الناس، الذي بلغ به الأمر أن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها.

إنها ثلاث آيات مترابطة، ترسم خارطة المصير لمن اختار طريق الفسق والإعراض، وتظهر عدل الله ورحمته في آن واحد.

تعال نعش مع قوله تعالى:
{وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (22)} [السجدة: 20-22]
تمهيد: الربط بين الآيات الثلاث وما قبلها

في الآية (19) تحدث الله عن {جَنَّاتُ المَأْوَىٰ} للمؤمنين، ووصفها بأنها {نُزُلًا} لهم. وهنا، في الآية (20)، يأتي ذكر مأوى الفاسقين، وهو {النَّارُ}. إنها المقابلة العادلة: مأوى الرحمة للمؤمنين، ومأوى العذاب للفاسقين.

ثم في الآية (21)، يذكر الله أنه سيذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا، قبل العذاب الأكبر في الآخرة. وهذا من رحمته، لعلهم يرجعون قبل فوات الأوان.

ثم في الآية (22)، يصل السياق إلى ذروة الظلم: من ذُكِر بآيات ربه، ورأى الحق واضحًا، ثم أعرض عنه متعمدًا. هؤلاء هم أظلم الناس، وسينتقم الله منهم.

وكأن السورة تقول لك: "لقد عرفتم طريق المؤمنين وجزاءهم، وعرفتم طريق الفاسقين وجزاءهم. والله برحمته يرسل لكم إنذارات في الدنيا لتستيقظوا. فإن أصررتم على الإعراض بعد كل هذا، فأنتم أظلم الظالمين، والله منتقم".
أولا ً: تفسير الآية العشرين (مأوى الفاسقين وعذابهم)

.1"وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا" .. الفريق الثاني بعد التفصيل

· "أمّا": حرف تفصيل، يقابل} أمّا الَّذِينَ آمَنُوا {في الآية السابقة .فبعد أن بين مأوى المؤمنين، يبين هنا مأوى الفاسقين.
· "فَسَقُوا": فعل ماضٍ من الفسق، وهو الخروج عن الطاعة .والمراد بهم هنا: الكفار والمنافقون والعصاة المصرون على الكبائر .ووصفهم بـ "فَسَقُوا" يشير إلى أنهم خالفوا الفطرة، وخرجوا عن جادة الصواب بعد أن كانت واضحة لهم.

اللمسة التربوية:
في الآية السابقة قال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فجمع بين الإيمان والعمل. وهنا قال: {الَّذِينَ فَسَقُوا} فقط، لأن الفسق يشمل فساد الاعتقاد وفساد العمل معًا. فالفاسق هو من فسد باطنه فانعكس على ظاهره.

.2"فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ" .. المأوى المقابل

· "مَأْوَاهُمُ": مثل} جَنَّاتُ المَأْوَىٰ{، ولكن هنا النار هي المأوى .والمأوى هو مكان الإيواء والاستقرار .وكما أن المؤمنين يأوون إلى الجنة ويستقرون فيها، فإن الفاسقين يأوون إلى النار ويستقرون فيها أبدًا.
· "النَّارُ": اسم جامع لكل معاني العذاب .وقد عرّفت بـ "أل" لتفيد الحقيقة الوحيدة التي تنتظرهم . ليست نار الدنيا، بل نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة.

التصوير المقارن:
في الآية السابقة: {جَنَّاتُ المَأْوَى} = ظل، راحة، أنهار، نعيم.
في هذه الآية: {النَّارُ} = حر، عذاب، قيود، جحيم.
هذا هو الفرق بين من آمن وعمل صالحًا، ومن فسق وخرج عن الطاعة.

.3"كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا" .. عذاب اليأس والقنوط

هذه الجملة ترسم مشهدًا حيًا مؤلمًا من مشاهد جهنم. دعنا نقف مع كل كلمة:

· "كُلَّمَا": ظرف يفيد التكرار المستمر .ليس مرة واحدة، بل كل مرة يريدون الخروج، يعادون فيها.
· "أَرَادُوا": مجرد الإرادة، وليس الخروج الفعلي .بمجرد أن تخطر ببالهم فكرة الخروج، أو يحاولوا الا قتراب من أبواب جهنم، يعادون فيها .إنه عذاب اليأس الذي لا ينقطع.
· "أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا": يتمنون الخروج ولو للحظة واحدة، ليستريحوا من حرها .ولكن...
· "أُعِيدُوا فِيهَا": الفعل مبني للمجهول، والمسلطون عليهم هم الزبانية، ملائكة العذاب .يدفعونهم بقوة إلى قاع النار.

التصوير الحي للمشهد (كاميرا من داخل جهنم):
تخيل سجينًا في زنزانة ضيقة، مظلمة، حارة. يحاول أن يقترب من الباب، أن يستنشق هواءً نقيًا. ولكن بمجرد أن تلمس يده الباب، يأتي سجان غليظ شديد فيدفعه بقسوة إلى داخل الزنزانة، ويقول له: "ارجع، لا خروج لك من هنا!".

ثم يكرر المسجون المحاولة، ويتكرر الدفع والإعادة. كل مرة يزداد يأسًا وقنوطًا. هذا هو حال أهل النار: كلما أرادوا الخروج، أعيدوا فيها. إنهم في سجن أبدي، لا أمل في الخروج منه أبدًا.

قال بعض المفسرين: تضربهم النار بلهبها فترفعهم إلى أعلى جهنم، حتى إذا قاربوا أبوابها يظنون أنهم خارجون، فإذا بهم يهوون إلى قعرها مرة أخرى. إنه عذاب الأمل المقطوع، وهو أشد أنواع العذاب النفسي.

4."وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ" .. توبيخ الضمير

· "وَقِيلَ لَهُمْ": القائل هم الملائكة، بأمر الله .وهذا القول يزيدهم عذابًا نفسيًا فوق العذاب الجسدي.
· "ذُوقُوا": أمر إهانة وتقريع .الذوق أبلغ من مجرد الإحساس، لأنه يعني مخالطة العذاب لحواسهم بـ الكامل.
· "عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ": تذكير لهم بسبب هذا العذاب .كانوا في الدنيا يكذبون بالبعث و النار، والآن هم في قلب النار يذوقونها.

التصوير الصوتي للمشهد:
تخيل الصوت الجهوري للملائكة يجلجل في أرجاء النار: {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ}. إنه توبيخ الضمير، يذكرهم بجحودهم واستهزائهم. كانوا يسمعون آيات العذاب في الدنيا فيستهزئون: "متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟". والآن قيل لهم: "ذوقوا ما كنتم به تكذبون".
ثانياً: تفسير الآية الحادية والعشرين (العذاب الأدنى رحمة قبل العذاب الأكبر)

1."وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ العَذَابِ الأَدْنَى" .. القسم الإلهي على الإنذار المبكر

· "لَنُذِيقَنَّهُمْ": اللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة .والله يقسم أنه سيذيقهم هذا العذاب حتمًا . وهو وعيد من الله لا يتخلف.
· "العَذَابِ الأَدْنَى": الأدنى يعني الأقرب أو الأصغر .وهو العذاب الذي يقع في الدنيا، قبل عذاب الآخرة.
· ما هو العذاب الأدنى؟ قال المفسرون: هو المصائب والمحن في الدنيا: كالمرض، الفقر، الجوع، الخوف، القتل والأسر في الحروب، الزلازل، الفتن، تسليط الظالمين .كلها عذاب أدنى.

2."دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ" .. العذاب الأصغر قبل الأكبر

· "دُونَ": بمعنى قبل أو أقل من.
· "العَذَابِ الأَكْبَرِ": هو عذاب جهنم في الآخرة .والعذاب الأدنى في الدنيا لا يقارن بالعذاب الأكبر في الآ خرة، ولكنه إنذار وتذكير.

3."لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" .. رحمة الله في ثنايا العذاب

· "لَعَلَّ": للترجي، أي رجاء أن يكون هذا العذاب الأدنى سببًا في رجوعهم إلى الله وتوبتهم.
· "يَرْجِعُونَ": من الرجوع، أي التوبة والإنابة إلى الله، وترك الفسق والطغيان.

المزيج العجيب بين الرحمة والعدل:
انظر إلى رحمة الله حتى في عقوباته الدنيوية! إنه يرسل العذاب الأدنى (مصائب، أمراض، شدائد) ليكون جرس إنذار، وصفعة إيقاظ للغافلين، قبل أن ينزل بهم العذاب الأكبر في الآخرة.

إنه كالطبيب الذي يؤلم المريض بإبرة لينقذه من عملية جراحية كبرى. الألم هنا رحمة، والغاية هي الشفاء.

أمثلة تقريبية لتوضيح المفهوم:

· المثال الأول: الأب الحكيم وابنه المهمل
تخيل أبًا حكيمًا له ابن يهمل دراسته ويلهو طوال اليوم .الأب يحب ابنه، فيحاول إيقاظه: ينصحه برفق، ثم يوبخه، ثم يحرمه من المصروف) عذاب أدنى .(لماذا؟ لعل الابن يرجع إلى صوابه ويدرس، قبل أن يواجه العذاب الأكبر) الرسوب في الامتحان، وضياع مستقبله.(
· المثال الثاني: السيارة ولوحة القيادة
تخيل سيارة بها أعطال .لوحة القيادة تعطي إنذارات) لمبات حمراء، أصوات تنبيه .(هذه الإنذارات هي العذاب الأدنى) إزعاج، قلق .(لو أهملها السائق واستمر في القيادة، فسينتهي به الأمر إلى العذاب ا لأكبر) تلف المحرك بالكامل، حادث سير .(إنذارات السيارة هي رحمة لصاحبها، لعلها ترجعه إلى الصيانة

قبل الكارثة.
· المثال الثالث: الألم الجسدي
الألم في جسم الإنسان هو نعمة مقنعة .عندما تشعر بألم في بطنك) عذاب أدنى(، فهذا الألم ينذرك بوجود مشكلة: التهاب الزائدة، حصوة، قرحة .فتذهب للطبيب وتتعالج .لو لم تشعر بهذا الألم، لتفاقم المرض حتى ينفجر ويهلكك) عذاب أكبر .(الألم هنا رسالة رحمة من الله، لعل صاحبه يرجع إلى الصحة.
ثالثاً: تفسير الآية الثانية والعشرين (أظلم الناس وانتقام الله)

.1"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا" .. الاستفهام الإنكاري

· "وَمَنْ أَظْلَمُ": استفهام إنكاري بمعنى النفي .أي: لا أحد أظلم من هذا الشخص .ليس هناك أحد بلغ من الظلم ما بلغه هذا الصنف.
· "ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ": التذكير بالآيات يكون ب- القرآن الكريم، وب- المواعظ، وب- المصائب) العذاب الأدنى .(كلها آيات تذكر العبد بربه.
· "ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا": ثم للتراخي والتعقيب .أي: بعد أن ذُكِّر ورأى الحق واضحًا، أعرض متعمدًا، وولى ظهره للحق.

لماذا هو أظلم الناس؟

· لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه .وهذا الرجل وضع آيات الله الواضحة في موضع الإهمال والإعراض .أعطاه الله العقل، والسمع، والبصر، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه المصائب لتذكره ...وكل هذا قابله ب- الإعراض.
· إنه كمن يرى النار تشتعل في بيته، ويناديه الناس: "بيتك يحترق!"، فيهز كتفيه ويقول: "لا يهمني"! أليس هذا قمة الحمق والظلم للنفس؟

.2"إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ" .. الوعيد الإلهي القاطع

· "إِنَّا": توكيد من الله سبحانه.
· "مِنَ الْمُجْرِمِينَ": من للتبعيض، أي: من هذا الصنف من المجرمين المعرضين عن آيات الله بعد التذكير .ووصفهم ب- "المجرمين" يدل على أن إعراضهم ليس مجرد غفلة، بل هو جريمة عظمى في حق أنفسهم وفي حق ربهم.
· "مُنتَقِمُونَ": اسم فاعل يفيد الثبوت والاستمرار .انتقام الله منهم حق ثابت لا مفر منه.

الفرق بين العقاب والانتقام:

· العقاب: جزاء على الذنب، قد يكون بقدر الذنب.
· الانتقام: أشد من العقاب، لأنه يتضمن معنى التشفي والإذلال .والله تعالى ينتقم من هؤلاء لشدة جرمهم، حيث قابلوا النعمة الكبرى) آيات الله (ب- الإعراض والجحود.

أمثلة تقريبية لتوضيح المفهوم:

· المثال الأول: الطالب والمدرس المخلص
تخيل مدرسًا مخلصًا يشرح الدرس لتلميذه عشرات المرات، ويستخدم معه كل الوسائل: صورًا، فيديوهات، أمثلة عملية .والتلميذ يدير وجهه، ويرفض أن ينظر إلى السبورة، ويقول: "لا أريد أن أفهم"! هذا التلميذ أظلم تلاميذ الفصل، لأن غيره قد يكون غبيًا لا يفهم، أما هو فقد أعرض بعد أن فُهم.
· المثال الثاني: المريض والطبيب الناصح
تخيل طبيبًا ناصحًا يصف لمريضه دواءً منقذًا للحياة، ويشرح له بالتفصيل كيفية تناوله، ويحذره من عواقب تركه .والمريض يسمع كل هذا، ثم يخرج من العيادة ويرمي الدواء في القمامة! هذا المريض أظلم الناس لنفسه، لأنه ألقى بنفسه إلى التهلكة عن عمد وإصرار.
· المثال الثالث: الغريق ومنقذه
تخيل رجلًا يغرق في بحر هائج .يأتي منقذ ماهر، ويرمي له حبل النجاة، ويصرخ فيه: "أمسك بالحبل!" .الغريق ينظر إلى الحبل، ويراه قريبًا منه، ثم يدير وجهه ويقول: "لا أريد النجاة، دعوني أغرق"! هذا هو أظلم الغرقى، لأنه رفض النجاة بعد أن وُضِعت بين يديه.

رابعاً: الدروس المستفادة من الآيات الثلاث مجتمعة

الدرس الأول: عدل الله المطلق في الجزاء

كما أن {جَنَّاتُ المَأْوَى} للمؤمنين، فإن {النَّارَ} مأوى الفاسقين. الجزاء من جنس العمل. الله لا يظلم أحدًا مثقال ذرة. من سار على طريق الهدى وصل إلى الجنة، ومن سار على طريق الفسق وصل إلى النار. هذا العدل يزرع في القلب الطمأنينة بأن كل شيء بميزان.

الدرس الثاني: رحمة الله حتى في عقوباته الدنيوية

}العَذَابِ الأَدْنَىٰ {هو رحمة متنكرة في زي نقمة .كل مصيبة تصيب العبد هي فرصة ذهبية ليتوب ويرجع قبل فوات الأوان .فلا تنظر إلى المصائب على أنها غضب أعمى، بل هي جرس إنذار يدعوك إلى مراجعة نفسك.

الدرس الثالث: خطورة الإعراض بعد العلم

}وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا .{ليس كمن جهل فلم يعلم، بل من علم ثم أعرض هو في قمة الظلم .وهذا يضعنا أمام مسؤولية عظيمة: كلما ازداد علمنا بالقرآن والسنة، ازدادت مسؤوليتنا في العمل به، وإلا كنا من هذا الصنف الخطير.

الدرس الرابع: اليأس من رحمة الله هو من كيد الشيطان

في وصف النار: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا}. هذا المشهد المرعب يجب أن يدفعنا إلى التمسك برحمة الله في الدنيا. باب التوبة مفتوح، والله يدعونا للرجوع. فلا تيأس من روح الله، بل بادر بالتوبة قبل أن يغلق الباب.
خامساً: دور الآيات ومفاهيمها في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولا ً: في بناء الشخصية المسلمة (الجانب الفردي)

.1توازن الرجاء والخوف:
المؤمن يقرأ} جَنَّاتُ المَأْوَىٰ {فيمتلئ رجاءً، ويقرأ} النَّارُ {فيمتلئ خوفًا .هذا التوازن يبني شخصية سوية، لا هي آمنة من مكر الله فتنغمس في المعاصي، ولا هي قانطة من رحمته فتيأس من التوبة.
.2الاستفادة من المصائب:
فهم} العَذَابِ الأَدْنَىٰ {كإنذار يجعل الشخصية المسلمة إيجابية في تعاملها مع الأزمات .بدل أن تنهار عند المصيبة، تنظر إليها كـ رسالة من الله لتصحيح مسارها.
.3محاسبة النفس قبل فوات الأوان:
} ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا {تجعل المسلم يحاسب نفسه باستمرار: هل أنا ممن يسمع آيات الله ثم يعرض عنها؟ هل أستجيب للمواعظ أم أؤجل التوبة؟ هذه المحاسبة تقي من الوقوع في دائرة أظلم الناس.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم (الجانب الاجتماعي)

.1تعزيز ثقافة الإنذار والتذكير:
المجتمع المسلم مطالب بأن يكون مجتمعًا ناصحًا، يذكر أفراده بآيات الله، ويحذرهم من مغبة الإ عراض .الآية} ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ {تحملنا مسؤولية التذكير بالحسنى.
.2تقوية النسيج الاجتماعي في مواجهة المصائب:
إذا فهم المجتمع أن} العَذَابِ الأَدْنَىٰ {هو ابتلاء ورحمة، فإنه يتكاتف في مواجهة الأزمات) كالأوبئة، الحروب، الكوارث .(ينظر إليها على أنها فرصة للتوبة الجماعية، لا مجرد عقاب عشوائي.
.3ردع الظالمين:
} إِنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ {تزرع في المجتمع الثقة في عدالة السماء .قد يفلت الظالم من عقاب الدنيا، لكنه لن يفلت من انتقام الله .هذا يمنع الإحباط واليأس عند رؤية الظلم، ويدفع المظلومين إلى الصبر والاحتساب.

ثالثاً: في بناء الحضارة (الجانب العمراني)

.1الحضارة القائمة على القيم لا تنهار:
الحضارة التي تعرض عن آيات الله وتنسى قيمها الأخلاقية، مصيرها الانتقام الإلهي) كسقوط الأمم

السابقة .(هذا الوعي يدفع الحضارة إلى التمسك بجذورها الروحية والأخلاقية، لتبقى في أمان من العذاب.
.2تحويل الأزمات إلى فرص للنهضة:
فهم} العَذَابِ الأَدْنَىٰ {كإنذار يدفع الحضارة إلى مراجعة مسارها .أمة تتعرض لكارثة، فتعود إلى الله وتصلح من شأنها، تنهض من جديد أقوى مما كانت .وهذا هو سر قيام الحضارات بعد سقوطها.

رابعاً: في التنمية البشرية (الجانب التطويري)

.1الإنذار المبكر كأداة للتطوير:
} العَذَابِ الأَدْنَىٰ {(مفهوم قريب من "الإنذار المبكر" في الإدارة .المشكلات الصغيرة هي إنذارات لمشك لات أكبر .من يتجاهلها يصل إلى العذاب الأكبر) انهيار المشروع أو الشركة .(الآية تعلمنا الاستجابة السريعة للإنذارات.
.2تحمل المسؤولية وعدم التبرير:
} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا {تذكرنا أن العذر بالجهل قد يكون مقبولا ً، أما ا لإعراض بعد العلم فهو قمة الظلم .في التنمية البشرية، هذا يعني تحمل نتائج قراراتنا بعد أن عرفنا الطريق الصحيح.
سادساً: كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1تدبر آيات النار كما تتدبر آيات الجنة:
كثير من المسلمين يقرؤون آيات الجنة فيطمئنون، ويتجاوزون آيات النار بسرعة خوفًا من الحزن. الأ جدر أن تقرأ آيات النار بتدبر وخشوع، وتتخيل المشهد، وتستعيذ بالله منها. هذا يزيد التقوى.

.2استثمار المصائب) العذاب الأدنى (للتوبة:
عندما تمر بمصيبة (مرض، خسارة، هم)، لا تقل: "لماذا أنا؟". بل قل: "اللهم هذه مصيبتي، فاجعلها تكفيرًا لذنوبي، وسببًا في رجوعي إليك". وابحث في نفسك: "ما الذنب الذي أحتاج أن أتوب منه؟". هذه هي إيجابية المؤمن.

.3كن مذكرًا للآخرين بآيات الله:
لا تكن أنانيًا في إيمانك. ذكر أهلك، أصدقائك، زملائك بآيات الله برفق ولين. شاركهم تفسير هذه الآ يات، وقل لهم: "أخاف أن نكون ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها". هذا من النصيحة الواجبة.

.4دعاء الاستعاذة من النار ومن أهوالها:
أكثر من الدعاء: "اللهم إني أعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول وعمل. اللهم أجرني من عذاب النار، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات". خاصة في سجودك وفي جوف الليل.

.5مراجعة استجابتك للمواعظ:
بعد كل موعظة تسمعها (خطبة جمعة، درس، آية)، اسأل نفسك: "كيف استجبت لهذه الموعظة؟ هل عملت بها أم أعرضت؟". اكتب تطبيقًا واحدًا على الأقل بعد كل موعظة.
خاتمة جامعة: رسالة الآيات الثلاث إلى قلبك

أيها العبد، لقد عرض الله عليك الطريقين: طريق الجنة وطريق النار. وأقام عليك الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب. وأرسل إليك إنذارات في الدنيا لتنتبه. وبعد كل هذا، الخيار بيدك.

لا تكن من أظلم الناس، الذين سمعوا آيات الله ثم أعرضوا عنها. بل كن من المؤمنين الصادقين، الذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون.

القسم الخامس
المبحث الأول

أيها المتدبر، يا من وقفت على مصارع الظالمين، ورأيت عدل الله في مشهد النار التي كلما أرادوا الخروج منها أعيدوا فيها، ويا من سمعت نداء الرحمة في العذاب الأدنى لعلهم يرجعون... ها أنت الآن تقف على سر القيادة والتمكين في الأرض، وتتعرف على شروط الإمامة في الدين، وتشهد انتقال الأ مانة الكبرى من أمة إلى أمة، لتعلم أن الهداية والقيادة ليستا بالأنساب والأحساب، بل بالصبر واليقين.

بعد أن عرض الله تعالى مصير الفاسقين المعرضين، أراد أن يربط قلبك بحقيقة عظيمة: أن القرآن

الذي بين يديك ليس بدعًا من الرسل، بل هو امتداد لوحي السماء الذي نزل على موسى عليه السلام. وأن الأمة التي كانت تحمل راية الهداية (بنو إسرائيل) إنما نالتها بالصبر واليقين، فلما فرطوا في هذه الشروط، سُلبت منهم القيادة، وانتقلت إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي حملت القرآن.

تعال نعش مع قوله تعالى:
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)} [السجدة: 23-25]

تمهيد: الربط بين مصير المكذبين وقصة موسى وانتقال القيادة

في الآيات السابقة، رأيت أظلم الناس: الذي ذُكِر بآيات ربه فأعرض عنها. وسمعت وعيد الله: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}. وهنا، كأن الله يريد أن يثبت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول له: "لا تحزن لإعراض قومك عن القرآن، فليسوا أول من أعرض عن كتاب الله. لقد آتينا موسى الكتاب من قبلك، فكذّب به قومه، ولكننا جعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون بأمرنا، لما توفرت فيهم شروط الهداية والقيادة: الصبر واليقين. وكذلك أيها النبي، ستكون أمتك أئمة للناس، إن هم صبروا على الحق وأيقنوا بآيات الله".

إنها رسالة تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم، وبشارة لهذه الأمة بأنها وريثة القيادة الدينية في الأ رض، ولكن بشرط: الصبر واليقين.

اللمسة التربوية:
هذا الربط يعلمك أن القيادة الحقيقية (الإمامة في الدين والهداية) ليست وراثة جسدية، بل هي وراثة قلبية وعملية. من اتصف بصفات القادة الربانيين، نال الإمامة، ولو كان فردًا في أمة. ومن تخلّى عنها، سُلبت منه ولو كان من سلالة الأنبياء.

أولا ً: تفسير الآية الثالثة والعشرين (إيتاء موسى الكتاب وتثبيت النبي)

.1"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ" .. سنة الله في إنزال الكتب

· الواو: عاطفة، واللام في "لقد" لام القسم، و"قد" للتحقيق .والله يقسم مؤكدًا أنه آتى موسى الكتاب)التوراة .(إنها حقيقة ثابتة لا شك فيها.
· "آتَيْنَا": أعطينا ومنحنا .لم يقل "أنزلنا" فقط، بل "آتينا"، إشارة إلى أن التوراة عطية ومنحة من الله لموسى وقومه.
· "مُوسَى": هو كليم الله، ونبيه العظيم، الذي اصطفاه الله برسالته.
· "الْكِتَابَ": المراد به التوراة، التي أنزلها الله على موسى في الطور، وفيها هدى ونور لبني إسرائيل.

الرسالة العقدية:
هذه الآية تؤكد أن القرآن ليس أول كتاب أنزله الله، بل هو ختام الكتب السماوية، ومصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل. وهذا يعطيك يقينًا بوحدة المصدر الإلهي لكل الكتب السماوية. فالدين واحد، والرسل إخوة، والله هو المرسل للجميع.

.2"فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ" .. تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم

· "فَلَا تَكُن": نهي من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .وهو في الظاهر نهي، لكنه في الحقيقة تثبيت وتسلية .فالنبي لم يكن في شك، ولكن الخطاب لزيادة اليقين والطمأنينة.
· "فِي مِرْيَةٍ": في شك وريب .أي: لا تكن في شك من أنك ستلقى موسى، أو من أن القرآن حق ك التوراة.
· "مِّن لِّقَائِهِ": الضمير في "لقائه" يحتمل معنيين:
· لقاء موسى: أي لقاء النبي صلى الله عليه وسلم لموسى عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج .وهذا تأكيد على أن الإسراء حق، وأن لقاء الأنبياء واقع.
· لقاء الكتاب: أي لقاء القرآن، بمعنى تلقي الوحي .فيكون المعنى: "لا تكن في شك من أنك تلقيت القرآن كما تلقى موسى التوراة".

اللمسة التربوية للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته:

هذا النهي هو تثبيت لفؤاد النبي في مواجهة تكذيب قومه. وكأن الله يقول له: "كما ثبتنا موسى بـ الكتاب، سنثبتك أنت بالقرآن. فامض في طريقك، ولا تلتفت إلى تكذيبهم. إن لقاءك بموسى في رحلة الإسراء هو شهادة من نبي عظيم لك بأنك على الحق".

المثال التقريبي:
تخيل أنك تسير في طريق طويل موحش، وتشعر بالوحدة. ثم يأتيك رسول من صديق قديم سبقك في هذا الطريق، ويقول لك: "صديقك فلان سار في هذا الطريق قبلك، ووصل إلى بر الأمان. وها هو يرسل لك رسالة يثبتك بها: 'لا تخف، الطريق آمن، وأنا بانتظارك في النهاية'". ألا يملأ هذا قلبك طمأنينة وثباتًا؟!
هكذا كان لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بموسى ليلة الإسراء. رأى موسى وهو في السماء السادسة، فكان ذلك تثبيتًا عمليًا على أن ما جاء به حق.

3."وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ" .. وظيفة الكتاب السماوي

· "وَجَعَلْنَاهُ": الضمير يعود على الكتاب) التوراة.(
· "هُدًى": هداية وإرشاد إلى الطريق المستقيم.
· "لِبَنِي إِسْرَائِيلَ": خاصة بهم في زمنهم، كما جعل القرآن هدى للناس عامة.

التوازي بين التوراة والقرآن:

· التوراة: آتاها الله لموسى، وجعلها هدى لبني إسرائيل.
· القرآن: آتاه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم، وجعله هدى للناس أجمعين.

والفرق أن القرآن ناسخ لما قبله، ومهيمن عليه، وعام للبشرية إلى يوم القيامة. ولكن الوظيفة الأ ساسية واحدة: الهداية إلى الله.

الرسالة التربوية:
إذا كان الله جعل التوراة هدى لقوم في زمانهم، فكيف لا يكون القرآن هدى لك ولأمتك إلى يوم القيامة؟ هذا يعظم مسؤوليتك تجاه القرآن. لستَ مجرد قارئ لحروفه، بل أنت مخاطَب بهدايته، ومطالب بالاهتداء به في كل شؤون حياتك.

ثانياً: تفسير الآية الرابعة والعشرين (شروط الإمامة والقيادة الربانية)

هذه الآية هي قلب الموضوع، وفيها سر القيادة والتمكين في الأرض.

1."وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً" .. منحة الإمامة

· "جَعَلْنَا": صيرنا، أي وهبناهم منزلة الإمامة.
· "مِنْهُمْ": من بني إسرائيل .لم نقل كلهم، بل بعضهم ممن توفرت فيهم الشروط.
· "أَئِمَّةً": جمع إمام، وهو القدوة والقائد الذي يُقتدى به في الخير والهدى .والإمامة هنا هي الإمامة في الدين والهداية، لا مجرد المُلك والسياسة .إنهم قادة روحيون وعلماء ربانيون يهدون الناس إلى طريق الله.

اللمسة البيانية:
لم يقل: "وجعلناهم ملوكًا" ولا "سلاطين"، بل قال: {أَئِمَّةً}. لأن الإمامة أشرف من الملك. الإمام هو من يُتَبَع في الحق، ويسير الناس خلفه طواعية، لأنه يحمل نور الوحي ويهتدي به.

2."يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا" .. الهداية بأمر الله لا بالهوى

· "يَهْدُونَ": فعل مضارع يفيد الاستمرار والتجدد .هم دائمًا في حالة هداية للناس.
· "بِأَمْرِنَا": أي بإذننا وشرعنا ووحينا .لا يهدون بأهوائهم، ولا بآرائهم الشخصية، ولا بقوانين وضعية . إنهم مبلغون عن الله، ومنفذون لأمره .وهذا هو سر قوتهم وتأثيرهم.

الفرق بين الإمام الرباني والداعية بالهوى:

· الإمام الرباني: همه أن يهدي الناس إلى الله، لا إلى نفسه .كلامه قرآن وسنة، وغايته رضوان الله.
· الداعية بالهوى: همه أن يلتف الناس حوله، ويثني عليه .قد يزين كلامه بآيات وأحاديث، ولكن غايته الشهرة والمال والمنصب.

.3"لَمَّا صَبَرُوا" .. الشرط الأول للإمامة: الصبر

· "لَمَّا": حرف يدل على التعليل والسببية .أي: بسبب صبرهم، جعلناهم أئمة.
· "صَبَرُوا": صبروا على طاعة الله، وصبروا على دعوة الناس، وصبروا على أذى المكذبين، وصبروا على مشاق التبليغ .الصبر هنا شامل لكل أنواع الصبر.

لماذا الصبر شرط للإمامة؟
لأن طريق الهداية طويل وشاق، مليء بالعقبات والمثبطات. فمن لم يصبر، لا يمكنه الثبات على الحق، فضلا ً عن أن يهدي غيره. القيادة تحتاج إلى نفس طويل، وثبات عند الشدائد، وهذا لا يتأتى إلا بـ الصبر.

المثال التقريبي:
تخيل ربان سفينة في بحر هائج. السفينة تتقاذفها الأمواج، والرياح عاتية، والركاب في هلع وخوف. الربان يحتاج إلى صبر عظيم ليثبت هو أولا ً، ثم ليثبت ركابه ويهديهم إلى بر الأمان. لو جزع الربان واضطرب، لضاعت السفينة بمن فيها.
هكذا الأئمة الربانيون: هم ربابنة سفن الهداية في بحر الدنيا المتلاطم. بصبرهم يثبتون، ويهدون الناس إلى شاطئ النجاة.

.4"وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" .. الشرط الثاني للإمامة: اليقين

· "وَكَانُوا": فعل ماض يفيد الثبوت والدوام .لم يكن يقينهم عارضًا، بل كان صفة لازمة لهم.
· "بِآيَاتِنَا": بكل آيات الله: الآيات الكونية) في السماوات والأرض(، والآيات الشرعية) في التوراة و القرآن.(
· "يُوقِنُونَ": اليقين هو العلم الراسخ الذي لا يتزعزع .ليس مجرد ظن أو تقليد، بل علم قلبي يصل إلى درجة الجزم المطلق.

لماذا اليقين شرط للإمامة؟
لأن الإمام قدوة، والقدوة يجب أن يكون ثابت الخطى، لا تزلزله الشبهات، ولا تضعضعه الفتن. من كان في قلبه شك، كيف يهدي غيره إلى اليقين؟! اليقين هو النور الذي يسير به الإمام، والناس تتبعه لأنها ترى هذا النور في وجهه وكلامه وأفعاله.

الربط بين الصبر واليقين:

· اليقين يثمر الصبر .لأن من أيقن بعظمة الله وعدله ووعده، صبر على البلاء، وعلم أن ما ينتظره خير مما فاته.
· الصبر يقوي اليقين .لأن من صبر على الطاعة والبلاء، رأى ثمرة الصبر في الدنيا والآخرة، فازداد يقينه بربه.

إنهما جناحان لا يطير بهما الإمام إلى معالي الهداية إلا بهما معًا.

المثال التقريبي:
تخيل مرشدًا سياحيًا يقود مجموعة في صحراء موحشة. إذا كان المرشد غير متيقن من الطريق، فإنه سيضل ويضل معه المجموعة. أما إذا كان موقنًا بالطريق، ويعرف كل معالمه، ويصبر على مشقة السير ، فإنه سيصل بالمجموعة إلى بر الأمان، وسيكون إمامًا لهم في هذه الرحلة.
هكذا الإمام الرباني: هو المرشد السياحي في رحلة الدنيا إلى الآخرة. باليقين يعرف الطريق، وبالصبر يتحمل مشقة السير.
ثالثا: تفسير الآية الخامسة والعشرين (حساب بني إسرائيل على اختلافهم)

.1"إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" .. رد الأمر إلى الله

· "إِنَّ": توكيد.

· "رَبَّكَ": خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .إضافة الرب إليه تشريف وتثبيت.
· "يَقْضِلُ": يحكم ويقضي بينهم بالعدل .الفصل هنا هو فصل القضاء الذي يبين الحق من الباطل.
· "يَوْمَ القِيَامَةِ": يوم الحساب الأكبر، حيث تظهر الحقائق وتنكشف السرائر.

.2"فِيمَا كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" .. الاختلاف في الدين بعد العلم

· "فِيمَا": في الذي كانوا يختلفون فيه.
· "كانُوا يَخْتَلِفُونَ": استمرار اختلافهم .وقد اختلف بنو إسرائيل بعد مجيء العلم) التوراة(، فكذّب بعضهم بعضًا، وحرفوا الكتاب، وقتلوا الأنبياء.

الرسالة العادلة:
الله لا يحاسبهم في الدنيا دائمًا، بل يؤخر الحساب إلى يوم القيامة. وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين: لا تحزنوا لاختلاف الناس عليكم، ولا لإنكارهم الحق بعد وضوحه. فالله هو الذي سيفصل بينكم يوم القيامة، وسيظهر من كان على حق ومن كان على باطل.

الفرق بين موقف المسلمين وموقف بني إسرائيل:

· بنو إسرائيل: اختلفوا في الكتاب) التوراة (بعد أن جاءهم .منهم من آمن، ومنهم من كفر، ومنهم من حرف.
· المسلمون: مأمورون بأن يجتمعوا على القرآن، وألا يتفرقوا .وقد حذرهم الله من الاختلاف:} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ] {آل عمران:.[105

ولكن، من اختلف من المسلمين، فإن حسابهم على الله، وسيفصل بينهم يوم القيامة. وهذا لا يعني ترك الأمر فوضى، بل يعني أننا نبذل جهدنا في جمع الكلمة، ونرد الأمر إلى الله فيما نختلف فيه بعد الاجتهاد.

رابعاً: انتقال القيادة من بني إسرائيل إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم (مفهوم الوراثة الربانية)

.1كيف كانت القيادة لبني إسرائيل؟

لقد اختار الله بني إسرائيل لحمل الرسالة في زمنهم، وجعل منهم أئمة يهدون بأمره، لما توفر فيهم شرطا الصبر واليقين. وقد ظهرت هذه الإمامة في أنبيائهم (داود، سليمان، زكريا، يحيى، عيسى عليهم السلام)، وفي علمائهم الربانيين الذين تمسكوا بالتوراة غير محرفة.

.2لماذا انتقلت القيادة إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟

لما فرط بنو إسرائيل في الشروط:

· ضيعوا الصبر: استعجلوا النصر بغير الطريق المشروع، وعصوا أنبياءهم، وقالوا لموسى:} فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ] {المائدة:.[24
· فقدوا اليقين: عبدوا العجل بعد أن رأوا الآيات البينات، وقالوا:} لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً {]البقرة:.[55

فلما سقطوا في الامتحان، سُلبت منهم الإمامة، وانتقلت إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي وصفها الله بقوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

.3شروط بقاء القيادة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم

إن انتقال القيادة إلى هذه الأمة ليس امتيازًا عنصريًا، بل هو مسؤولية عظمى مشروطة بنفس الشروط: الصبر واليقين.

· الصبر: على طاعة الله، وعلى أذى الناس، وعلى إقامة الدين، وعلى الجهاد في سبيل الله.
· اليقين: بأن القرآن حق، وأن وعد الله حق، وأن النصر آت مهما طال الزمن.

التحذير القرآني:
كما سُلبت القيادة من بني إسرائيل لما فرطوا في الصبر واليقين، فإنها ستُسلب من هذه الأمة إن فرطت في هذه الشروط. قال تعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} [محمد: 38].

المثال التقريبي لانتقال القيادة:
تخيل شركة كبرى أعطت امتيازًا لإحدى الفرق لإدارة مشروع ضخم. شرط الامتياز: الكفاءة والأمانة.

- في البداية، كانت الفرق الأولى كفؤًا وأمينًا، فنجح المشروع.
- ثم تراخت الفرق، وأهملت، وخانت الأمانة.
- فسحبت الشركة منها الامتياز، وأعطته لفريق آخر يتحلى بالكفاءة والأمانة.

هكذا القيادة الدينية: هي امتياز إلهي، يُعطى لمن يصبر ويوقن، ويُسحب ممن يفرط ويشك. أمة محمد صلى الله عليه وسلم حصلت على الامتياز، والبقاء عليه مرهون بالوفاء بشروطه.
خامساً: الدروس المستفادة من الآيات الثلاث

الدرس الأول: وحدة رسالة السماء

القرآن والتوراة من مشكاة واحدة. من آمن بالقرآن، آمن بكل الكتب السماوية. وهذا يورث احترامًا لأهل الكتاب من حيث هم حملة وحي سابق، مع بيان ما وقع فيه من تحريف.

الدرس الثاني: القيادة تكليف لا تشريف

الإمامة والقيادة في الدين مسؤولية ثقيلة، وليست شرفًا فارغًا. من طلبها لذاتها، حُرمها. ومن تحملها بأمانة، أعانه الله عليها.

الدرس الثالث: الصبر واليقين جناحا التمكين

لا يمكن لأمة أن تنهض، ولا لفرد أن يهدي غيره، إلا إذا صبر على مشاق الطريق، وأيقن بأن الله معه، وأن العاقبة للمتقين. هاتان الصفتان هما سر النصر في معركة الهداية.

الدرس الرابع: الخلاف آية ضعف الأمة

بنو إسرائيل اختلفوا بعد مجيء العلم، فكان اختلافهم سبب ضعفهم وهوانهم. والأمة الإسلامية منهية عن الاختلاف المذموم. الاجتماع على أصول الدين والقرآن هو مصدر قوتها.

الدرس الخامس: تأجيل الحساب إلى يوم القيامة رحمة وعدل

الله يمهل ولا يهمل. اختلاف الناس وافتراقهم في الدنيا، وادعاء كل فريق أنه على الحق... كل هذا سيُفصل فيه يوم القيامة. وهذا يمنعنا من الحكم على النيات، ويجعلنا نكل الأمور إلى الله.
سادساً: دور الآيات في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولاً: في بناء الشخصية المسلمة

1.تثبيت اليقين بوحي القرآن:
معرفة أن القرآن امتداد لوحي السماء يزيد المؤمن يقينًا بأنه على الحق .إنه ليس كتابًا جديدًا منقطعًا عن رسالة السماء، بل هو ختامها ومهيمنها.
2.تربية الصبر كمنهج حياة:
الصبر ليس مجرد تحمل ألم، بل هو استراتيجية حياة .الشخصية المسلمة تُربى على الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله المؤلمة .وهذا الصبر هو وقود النجاح في الدنيا والآخرة.
3.الاعتزاز بالانتماء لأمة القيادة:
شعور المسلم بأنه ينتمي إلى أمة جعلها الله أئمة للناس) بشرط الصبر واليقين (يمنحه عزة وكرامة ، ويدفعه إلى أن يكون قدوة في سلوكه وأخلاقه.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم

.1إعداد القادة الربانيين:
الآية} وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً {توجه المجتمع إلى اكتشاف القادة وإعدادهم .القادة هم الثروة الحقيقية ل
لأمة .يجب أن نستثمر في تربية جيل يصبر ويوقن، ليكونوا أئمة هداية في المستقبل.
.2وحدة الصف ونبذ الفرقة:
الآية} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ {تعلمنا أن نوكل الخلاف إلى الله، وألا نجعل الاختلاف في الفروع سببًا للتناحر والفرقة .هذا يعزز الوحدة الإسلامية.
.3التسامح مع المخالفين:
طالما أن الفصل في الخلاف يوم القيامة، فليس لنا أن نحتكر الحق ونكفر المخالفين .هذا يؤسس لمجتمع متسامح، يحترم الاجتهاد، ويدين بالتعصب.

ثالثاً: في بناء الحضارة

.1الصبر واليقين محركان للحضارة:
الحضارة تحتاج إلى أجيال صابرة على البحث العلمي، والتجارب المضنية، والعمل الدؤوب .وتحتاج إلى يقين بأن ما تفعله هو في طريق الخير والحق .هاتان الصفتان هما ما دفع العلماء المسلمين الأ وائل لتحقيق إنجازاتهم.
.2الحضارة الربانية حضارة هداية:
الحضارة الإسلامية ليست مجرد عمران مادي، بل هي حضارة هداية تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور .وهذا يتطلب أئمة في كل مجال: في العلم، في الإعلام، في الاقتصاد، يهدون الناس بأمر الله.

رابعاً: في التنمية البشرية

.1نموذج القائد الرباني في الإدارة:
مواصفات الإمام في الآية) يهدي بأمر الله، صابر، موقن (هي أفضل مواصفات للقائد الناجح في أي مجال .قائد صبور لا تنهار أعصابه عند الأزمات، وموقن برؤيته وهدفه، فيقود فريقه بثبات إلى النجاح.
.2الصبر كمهارة حياتية:
الصبر ليس مجرد خلق ديني، بل هو مهارة حياتية ضرورية للنجاح .برامج التنمية البشرية تعلم الصبر والمثابرة كأساس لتحقيق الأهداف طويلة المدى.
سابعاً: كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1تثبيت اليقين بالقرآن يوميًا:
اقرأ كل يوم شيئًا من قصص الأنبياء في القرآن، وتأمل كيف أن رسالتهم واحدة، وكيف نصرهم الله بصبرهم ويقينهم. هذا يزيد يقينك بأن القرآن حق، وأن وعد الله لا يتخلف.

.2تمرين عملي على الصبر:
اختر طاعة واحدة تجد فيها مشقة، وداوم عليها شهرًا كاملا ً. مثلا ً: قيام الليل، أو قراءة جزء من القرآن يوميًا، أو حفظ حديث. ستجد أن الصبر على هذه الطاعة يقوي إرادتك، ويزيد يقينك.

.3كن إمامًا في دائرتك الصغيرة:
لا تنتظر أن تكون إمامًا للمسجد أو داعية مشهورًا. كن إمامًا في أسرتك: قدوة في الصلاة، قدوة في الصدق، قدوة في الأخلاق. كن إمامًا بين زملائك: تهديهم إلى الخير بأمر الله، وبصبرك ويقينك.

.4رد الخلاف إلى الله:
إذا وقع خلاف بينك وبين أحد، في مسألة دينية أو دنيوية، ولم تصل إلى حل، فقل: "حسبنا الله ونعم الوكيل، وهو يفصل بيننا يوم القيامة". هذا يبرد القلب، ويمنع تفاقم الخصومة.

.5الدعاء بثبات الإمامة:
ادعُ الله دائمًا: "اللهم اجعلنا أئمة للمتقين، واجعلنا ممن يصبر ويوقن، ولا تجعلنا ممن يستبدل بهم غيرهم".
خاتمة جامعة: رسالة الآيات إلى قلبك

أيها العبد، إن هذه الآيات تفتح لك سر القيادة والتمكين. إنها تقول لك: "أنت من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الأمة التي ورثت الإمامة في الأرض. فلا تفرط في شرطيها: الصبر واليقين. اصبر على طاعة الله، وعلى دعوة الناس إليه، وأيقن بأن وعد الله حق، وأن النصر آتٍ. ولا تكن كبني إسرائيل الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، فإن الله سيفصل بينهم يوم القيامة".

المبحث الثاني

أيها المتدبر، يا من أبصرت بعين قلبك كيف انتقلت الإمامة والقيادة من أمة إلى أمة بالصبر واليقين، ويا من وعيت شروط التمكين في الأرض... ها أنت الآن تقف أمام درس تاريخي عظيم، ومشهد من مشاهد سنن الله في الأمم. إنها آية الاعتبار، التي تفتح لك سجل الخالدين، وتدعوك إلى السير في ا لأرض بقلبك وعقلك، لترى مصارع الغابرين، فتتعظ وتستيقن أن سنة الله واحدة لا تحابي أحدًا.

بعد أن ذكر الله كتاب موسى وما جعله من أئمة يهدون بأمره، أراد أن يذكرهم بمصير من كذب وكفر من الأمم السابقة، ليكون ذلك تثبيتًا للمؤمنين، وإنذارًا للمكذبين. فهذه الآية هي جسر العبرة بين قصص الماضين وواقع الحاضرين.

لقد سقطت هذه الآية من تسلسلنا السابق سهوًا، وها نحن نعود إليها لنغرف من معينها، ونعيش مع كل حرف فيها، ولنجعلها نبراسًا يضيء لنا طريق الاعتبار والاتعاظ.

قال تعالى:
{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26)} [السجدة: 26]

تمهيد: الربط بين آيات الإمامة والتمكين وآية الاعتبار بالأمم السابقة

في الآيات (23-25)، تحدث الله عن بني إسرائيل، وكيف آتى موسى الكتاب، وجعل منهم أئمة يهدون بأمره لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون. ثم ذكر أن القيادة انتقلت، وأن الفصل بين المختلفين سيكون يوم القيامة.

وهنا، في الآية (26)، ينتقل السياق إلى دليل تاريخي ملموس على عاقبة المكذبين. كأن الله يقول لكفار قريش: "إن كنتم في شك من أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أن القيادة قد تنتقل من أمة إلى أمة، ومن أن العذاب قد ينزل بالمكذبين، فانظروا إلى آثار القرون من قبلكم. سيروا في الأ رض، وانظروا ماذا حل بعاد وثمود وقوم لوط. لقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا ً، فأهلكناهم بكفرهم. أفلا تعتبرون؟!".

إنه درس تاريخي مفتوح، ومتحف عقاب إلهي لا يُغلق أبوابه. من أراد أن يرى مصارع الظالمين، فليسر في الأرض متأملا ً.

اللمسة التربوية:
هذا الربط يعلمنا أن التاريخ ليس مجرد قصص للتسلية، بل هو مدرسة للعبرة. من قرأ التاريخ بعين البصيرة، عرف سنن الله، واتقى أسباب الهلاك.

أولا ً: تفسير الآية وبيان معانيها

1."أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ" .. استفهام تقريري وتوبيخي

· الهمزة "أ": للاستفهام التقريري التوبيخي .أي: ألم يتبين لهم، ألم يظهر لهم الحق؟!
· الواو: عاطفة على ما سبق من الآيات والدلائل.
· "يَهْدِ": فعل مضارع مجزوم بـ "لم" وعلامة جزمه حذف حرف العلة) الياء .(وأصله "يهدي" .والهداية هنا هداية الدلالة والإرشاد، وليست هداية التوفيق .أي: ألم يتبين لهم الطريق، ويروا الحق واضحًا في آثار الهالكين؟!
· "لَهُمْ": اللام للاختصاص .أي: لأجلهم، ليعتبروا ويتعظوا .فالآيات قائمة لهم، ولكنهم لا ينتفعون بها.

اللمسة البيانية:
حذف الياء من "يهد" في الرسم القرآني وفي الوقف، يوحي بالسرعة والخفة في إيصال المعنى. وكأن الهداية واضحة جلية، لا تحتاج إلى إطالة. ومع ذلك هم لا يهتدون!

.2"كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ" .. سجل الإهلاك الرهيب

· "كَمْ": خبرية، تفيد التكثير .أي: كثيرًا من القرون أهلكنا.
· "أَهْلَكْنَا": الإهلاك هو الإفناء والإبادة .والله ينسب الإهلاك إلى نفسه، ليعلموا أن العقوبة كانت بأمره وسلطانه، وليست مجرد حوادث طبيعية.
· "مِن قَبْلِهِم": أي قبل كفار قريش، في الزمان والمكان .وهذا يزيد الأمر قربًا إلى أذهانهم، فهم يرون آثارهم كل يوم في أسفارهم.
· "مِنَ الْقُرُونِ": القرون جمع قرن، وهو الأمة من الناس في زمن واحد .والمراد بهم: عاد، ثمود، قوم لوط، أصحاب مدين، فرعون وقومه ...وغيرهم ممن كذبوا الرسل فأهلكهم الله.

التصوير العددي المرعب:
"كَمْ" تفتح عليك دفتر الإهلاك الإلهي. إنه ليس رقمًا واحدًا، بل أعداد كثيرة من الأمم التي دمرت عن بكرة أبيها. تخيل أنك تقلب صفحات هذا الدفتر: أمة عاد... أهلكت. أمة ثمود... أهلكت. قوم لوط... أهلكوا. فرعون وجنوده... أهلكوا. كم من حضارة عظيمة طواها النسيان بسبب كفرها وطغيانها!

.3"يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ" .. مشاهدة الآثار بالعين المجردة

· "يَمْشُونَ": فعل مضارع يفيد الاستمرار والتجدد .كفار قريش يمشون بأقدامهم في ديار هؤلاء المهلكين .يمرون على مدائن صالح في الشام، ويرون آثار عاد في الأحقاف، ويشاهدون قرى قوم لوط في طريقهم إلى الشام.
· "فِي مَسَاكِنِهِمْ": المساكن هي الديار والمنازل التي كانوا يعيشون فيها .هي الآن خاوية على عروشها، شاهدة على عظمة البناء وسرعة الفناء.

التصوير الحي للمشهد (كاميرا تصور قافلة قريش):
تخيل قافلة تجارية من قريش تسير في طريقها إلى الشام. تمر على مدائن صالح. ترى البيوت المنحوتة في الجبال، والقصور الفارغة. ترى آبارًا كانت تروي أممًا فأصبحت معطلة. ترى قصورًا مشيدة سكنتها الجنادل والصمت. يسيرون بين هذه الآثار، وينظرون إليها، ويتحدثون عن أصحابها. ومع ذلك... لا يعتبرون!

السؤال الذي تطرحه الآية:
كيف يمكن لإنسان أن يمر على مقبرة أمم، ويرى بأم عينيه عاقبة المكذبين، ثم يستمر في غفلته وطغيانه؟! أليس هذا منتهى العمى القلبي؟!

.4"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ" .. تأكيد أن الآثار آيات واضحات

· "إِنَّ": حرف توكيد.
· "فِي ذَٰلِكَ": في ذلك الإهلاك، وفي تلك الآثار الباقية.
· "لَآيَاتٍ": اللام لام التوكيد) المزحلقة .(وآيات جمع آية، وهي العلامة والدليل الواضح .أي: إن في إهلا ك القرون السابقة، وفي مساكنهم الخاوية، لعلامات بينات على قدرة الله، وصدق رسله، وحتمية العذاب للمكذبين.

اللمسة البيانية:
التأكيد بـ "إن" و"اللام" يدل على أن هذه الآيات في غاية الوضوح، لا تحتاج إلى جهد عقلي كبير لا ستنباطها. إنها آيات مشاهدة بالعين، ومع ذلك ينكرها من طمس الله على قلبه.

.5"أَفَلَا يَسْمَعُونَ" .. ختام بالتوبيخ والحث على السمع الواعي

· "أَفَلَا": الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف، و"لا" للنفي .أي: أبعد كل هذه الآيات الواضحة لا يسمعون؟!
· "يَسْمَعُونَ": السمع هنا سمع القلب والعقل، أي سمع التدبر والاعتبار .وليس مجرد سمع الأذن .إنهم يسمعون أخبار هذه الأمم، ويرون آثارها، ولكنهم لا يتعظون.

لماذا ختم بـ "يسمعون" وليس "يبصرون" أو "يعقلون"؟
لأن أخبار الأمم السابقة تصلهم بالسمع (القرآن يخبرهم، وأهل الكتاب يخبرونهم، والمسافرون يروون). فمن سمع هذه الأخبار واعتبر، نجا. ومن سمع ولم يعتبر، هلك. والسمع هو طريق العلم، فإذا لم ينتفع به، كان وبالا ً على صاحبه.

ثانياً: أمثلة تقريبية حسية لتوضيح المفهوم

المثال الأول: السيارة المحطمة على جانب الطريق

تخيل أنك تقود سيارتك على طريق سريع. وفجأة، ترى سيارة محطمة تمامًا على جانب الطريق. ترى آثار الحادث: الزجاج المهشم، الحديد المتكوم، وربما آثار دماء. تقرأ في الجريدة أن سبب الحادث كان السرعة الجنونية أو التجاوز الخاطئ.

ماذا تفعل؟

· السائق العاقل: يخفض سرعته، ويلتزم بقواعد المرور، ويشكر الله على نجاته، ويعتبر بالمشهد.
· السائق الغافل: يمر بسرعة، ولا يلتفت، ويقول: "هذا شأنه، أنا سائق ماهر، لن يحدث لي شيء!" .ثم يستمر في تهوره.

هكذا الغافلون عن آيات الله: يمرون على مصارع الأمم، ولا يعتبرون. يقولون: "نحن أقوى، نحن أذكى، لن يحدث لنا ما حدث لهم!". فيستمرون في طغيانهم حتى يأتيهم العذاب بغتة.
المثال الثاني: بقايا منزل محترق

تخيل أنك تمشي في حي سكني، فترى منزلا ً محترقًا بالكامل. جدرانه سوداء، وسقفه منهار، ولا أثر للحياة فيه. تسأل عن قصته، فيقال لك: "كان يسكنه أثرياء متكبرون، يظلمون الناس، ولا يشكرون الله. وفي ليلة من الليالي، شب حريق بسبب إهمالهم، فاحترق المنزل بمن فيه".

ماذا يحدث في قلبك؟

· القلب الحي: يخاف، ويقول: "اللهم لا تؤاخذني بما فعل هؤلاء .اللهم ارزقني الشكر والتواضع".
· القلب الميت: يمر مرور الكرام، وربما قال: "مساكين، حظهم سيء!".

هكذا {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ}: يرون منازل الظالمين خاوية، ولكن قلوبهم ميتة لا تعتبر.
المثال الثالث: قصة شركة عملاقة أفلست

تخيل أنك تعمل في مجال التجارة، وتسمع عن شركة عملاقة كانت تحتكر السوق، ولها فروع في كل مكان. ثم أفلست فجأة، واختفت من الوجود. تبحث عن أسباب الإفلاس، فتجد أنها كذبت على العملا ء، واحتكرت السلع، وظلمت الموظفين، وأهملت الجودة.

ماذا تتعلم؟

· التاجر العاقل: يخاف، ويراجع سياساته، ويحرص على الأمانة والجودة.
· التاجر الغافل: يقول: "هم فشلوا لأنهم لم يحسنوا التخطيط .أما أنا فسأنجح!" .ثم يسلك نفس طريقهم فيهلك.

هكذا الأمم السابقة: كانت حضارات عظيمة، ثم انهارت بسبب ظلمها وكفرها. والله يخاطبنا: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}، أفلا نعتبر قبل أن نكون نحن الخبر لمن بعدنا؟!
ثالثاً: الدروس المستفادة من الآية

الدرس الأول: التاريخ مدرسة العبرة، لا للتسلية

قراءة أخبار الأمم السابقة ليست ترفًا فكريًا، بل هي واجب إيماني. من قرأ التاريخ بعين الاعتبار، عرف سنن الله التي لا تحابي أحدًا: الظلم يؤدي إلى الهلاك، والكفر يؤدي إلى الدمار، والتكبر يؤدي إلى الزوال.

الدرس الثاني: آثار الهالكين آيات قائمة

}يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ {دعوة إلى السياحة الإيمانية في الأرض .زيارة الآثار لا للتباهي بها، بل للاتعاظ بها .انظر إلى الأهرامات، إلى مدائن صالح، إلى بعلبك، واسأل نفسك: "أين بناة هذه الصروح؟ أين ظلمهم وجبروتهم؟" .سترد عليك الآثار:} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا.{

الدرس الثالث: العين ترى، والقلب يعمي

}أَفَلَا يَسْمَعُونَ {تذكرنا أن العبرة ببصيرة القلب، لا ببصر العين .كم من سائح يزور الآثار ويلتقط الصور، ثم يعود وكأنه لم ير شيئًا! وكم من مؤمن يقرأ آية في القرآن عن عاد وثمود، فيبكي خوفًا من الله، وتلين نفسه للطاعة! الفرق هو حياة القلب.

الدرس الرابع: سنة الله في إهلاك المكذبين مستمرة

ما حدث للأمم السابقة ليس أساطير، بل هو واقع تاريخي، وسنة إلهية مستمرة. كل أمة تكذب رسلها، وتظلم في الأرض، ستنال نصيبها من هذه السنة. {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: 43].
رابعاً: دور الآية في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولا ً: في بناء الشخصية المسلمة

.1تربية ملكة الاعتبار والاتعاظ:
الشخصية المسلمة لا تمر على الأحداث مرورًا عابرًا، بل تستخلص الدروس من كل ما ترى وتسمع . هذه الآية توقظ في النفس ملكة الاعتبار، فتجعل المؤمن يقظًا دائمًا.
.2تعزيز الخوف من الله والخشية:
رؤية مصارع الظالمين، ولو بالسمع والقراءة، تزرع في القلب خشية من الله، وخوفًا من مكر الله . والمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، وهذا يوازن شخصيته.
.3التواضع وعدم الاغترار بالقوة:
} كَمْ أَهْلَكْنَا {تذكر المؤمن أن القوة المادية) أموال، جيوش، تكنولوجيا (لا تغني عن الإيمان والتقوى . فمن كان قبلكم أشد قوة، فأهلكهم الله .هذا يكسر الكبر، ويورث التواضع.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم

.1تعزيز الوعي التاريخي:
المجتمع الذي يقرأ تاريخه وتاريخ غيره بعين الاعتبار، هو مجتمع واع، لا يكرر أخطاء الماضي . هذا الوعي يحمي المجتمع من السقوط في فخاخ الأمم السابقة.
.2تقوية النسيج الاجتماعي بالعدل:
معرفة أن الظلم سبب هلاك الأمم، تدفع المجتمع إلى إقامة العدل في كل مجالاته: عدل في الحكم، عدل في القضاء، عدل في توزيع الثروات .فالظلم مؤذن بالخراب.
.3الاعتبار بحضارة العدو قبل هزيمته:
الآية تدعو إلى دراسة أسباب هلاك الأعداء، لنتجنبها .ودراسة أسباب قوتهم التي لم تغن عنهم، لنعلم أن القوة الحقيقية هي الإيمان والتقوى.

ثالثاً: في بناء الحضارة والتنمية

.1الاستفادة من أخطاء الحضارات السابقة:
الحضارة المعاصرة يمكنها أن تدرس سقوط الحضارات السابقة) الرومانية، الفارسية، وغيرها(، وتستخلص عوامل السقوط) الظلم، الترف، الانحلال الأخلاقي(، فتتجنبها .هذه الآية تفتح باب علم الا جتماع التاريخي من منظور إيماني.
.2توجيه التنمية نحو القيم:
التنمية المادية وحدها لا تكفي لبقاء الحضارة .الآية تذكرنا بأن الإيمان والتقوى هما صمام الأمان للحضارة من الانهيار .فالتنمية يجب أن تكون متوازنة: مادية وروحية.
.3السياحة الإيمانية كمجال تنموي:
} يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ {تفتح آفاق السياحة التأملية، التي تربط الإنسان بالتاريخ والطبيعة والله . يمكن استثمار هذا المفهوم في تنمية سياحية تهدف إلى الاعتبار لا اللهو.
خامساً: كيف نطبق هذه الآية في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1تخصيص وقت لقراءة قصص الأنبياء والأمم السابقة:
اجعل لك وردًا أسبوعيًا تقرأ فيه قصص القرآن، وتتأمل في أسباب هلاك الأمم. اسأل نفسك: "ما الذنب الذي أهلكهم؟ هل أنا أقع فيه؟". هذا ينقذك من الغفلة.

.2زيارة الآثار بنية الاعتبار:
إذا زرت منطقة أثرية، لا تكن مجرد سائح. قف متأملا ً، وقل بقلبك: "سبحانك اللّهم، هؤلاء قوم أهلكتهم بذنوبهم. اللّهم لا تؤاخذنا بذنوبنا، واغفر لنا وارحمنا". هذه الزيارة تصبح عبادة.

.3تدوين الدروس المستفادة من الأخبار اليومية:
كلما سمعت خبر انهيار شركة، أو سقوط دولة، أو كارثة طبيعية، توقف واسأل: "ما السبب؟ هل هو ظلم؟ كفر بالنعمة؟ إهمال؟". اكتب درسًا واحدًا في دفترك، ليكون زادًا لك في مسيرتك.

.4مشاركة العبرة مع الآخرين:
عندما تمر على آية تاريخية في القرآن، شارك العبرة مع أهلك وأصدقائك. قل لهم: "انظروا ماذا فعل الله بقوم كذا. فلنتق الله ونتعظ". هذا يحيي سنة التذكير في المجتمع.

.5الدعاء بالعافية من سنن الهلاك:
أكثر من الدعاء: "اللّهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك". هذا الدعاء يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مستنبط من معاني هذه الآية.
خاتمة: رسالة الآية إلى قلبك

أيها العبد، إن {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ} ليست مجرد آية تتلى، بل هي نداء رباني لك: "افتح عينيك، وانظر بقلبك، وتأمل في آثار الهالكين. فما حدث لهم هو درس لك. لا تكن كمن يمر على المقابر ولا يتعظ. بل كن من الذين إذا رأوا آثار الأمم السابقة، ازدادوا إيمانًا ويقينًا، وخوفًا من عذاب الله، وشوقًا إلى رحمته".
المبحث الثالث
أيها المتدبر، يا من أبصرت بقلبك كيف ساق الله القيادة والتمكين لمن يصبر ويوقن، وكيف انتقلت أمانة الهداية من أمة إلى أمة... ها أنت الآن تقف أمام آية كونية عظيمة، ودليل مادي ملموس على قدرة الله على البعث والإحياء. ثم تقف بعدها على سؤال المستهزئين، الذين يطلبون الفتح استعجالا ً واستهزاءً، ليأتيهم الجواب في خاتمة السورة بالصاعقة التي تخرس الألسنة.

إنها آيتان مترابطتان: الأولى دليل القدرة، والثانية سؤال الاستهزاء. وكأن السياق يقول: "إن كنتم في شك من البعث، فانظروا إلى الأرض الميتة كيف نحييها بالماء. وإن كنتم مستعجلين للفتح، فسيأتيكم يوم لا ينفعكم فيه إيمانكم".

تعال نعش مع قوله تعالى:
{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28)} [السجدة: 27-28]
تمهيد: الربط بين آيات القيادة وآيات الإحياء والاستهزاء

في الآيات السابقة، رأيت شروط القيادة الربانية: الصبر واليقين. ورأيت أن الله آتى موسى الكتاب كما آتى محمدًا صلى الله عليه وسلم القرآن. وهنا، ينتقل السياق إلى دليل حسي على قدرة الله على البعث، ليزيد المؤمنين يقينًا، ويدحض شبهات المنكرين.

ثم يعرض قول المستهزئين: {مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ}. إنهم يطلبون العذاب الذي وعدهم به النبي صلى الله عليه وسلم، استهزاءً وتكذيبًا. وهذا يذكرنا بقولهم في بداية السورة: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}، وقولهم: {أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

وكأن السورة تعود إلى بدايتها: هناك أنكروا القرآن (افتراه)، وهنا ينكرون البعث ويستعجلون الفتح. و الله يرد عليهم بالآيات الكونية وبالوعيد الإلهي.
أولا ً: تفسير الآية السابعة والعشرين (دليل إحياء الأرض الميتة)

.1"أَوَلَمْ يَرَوْا" .. استفهام تقريري وتوبيخي

· الهمزة "أ": للاستفهام التقريري التوبيخي .أي: كيف لا يرون هذه الآية الواضحة؟!
· الواو: عاطفة على ما سبق من الآيات والدلائل.
· "لَمْ يَرَوْا": الرؤية هنا رؤية بصرية وعقلية .هم يرون بأعينهم، ولكنهم لا يتفكرون ولا يعتبرون .وكأن الآية تقول: "أليسوا يرون هذه الظاهرة بأعينهم؟ فكيف لا يستدلون بها على قدرة الله على البعث؟!"

اللمسة التربوية:
هذا الاستفهام يخاطب عقلك وبصرك معًا. إنه يدعوك إلى التفكر في آيات الله المنظورة حولك، وألا تمر عليها مرور الكرام دون أن تنتفع بها وتزداد بها إيمانًا.

.2"أَنَّا تَسُوقُ الْمَاءَ" .. الفاعل الحقيقي هو الله

· "أَنَّا": أن المشددة مع نا المتكلمين .أي: أننا نحن نسوق الماء .إسناد الفعل إلى الله مباشرة، ليعلم العباد أن السحب والرياح والأمطار ليست عشوائية، بل هي مسوقة بأمر الله وتدبيره.
· "تَسُوقُ": السوق هو التوجيه بلطف ورفق من مكان إلى آخر .الله يسوق الماء من البحار والمحيطات، عبر الرياح والسحب، إلى حيث يشاء من الأرض .إنه تدبير محكم لا عشوائية فيه.

التصوير الحي للمشهد:
تخيل راعيًا حكيمًا يسوق قطيعه برفق إلى المراعي الخصبة. لا يتركها تتفرق، بل يوجهها بعناية إلى حيث الخير. هكذا الله سبحانه: يسوق الماء من المحيطات، يحمله على الرياح، يجمعه في السحب، ثم يسوقه إلى أرض بعينها، فينزله عليها رحمة.

.3"إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ" .. اختيار الأرض الميتة القاحلة

· "الْأَرْضِ الْجُرُزِ": الجرز هي الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، كأنها حلق الشعر أو أرض قد أكل نباتها . إنها أرض ميتة، لا أثر للحياة فيها.
· لماذا اختيار الأرض الجرز بالذات؟
لأن إحياء الأرض الميتة هو أقرب مثال مادي على البعث بعد الموت .الإنسان يموت ويصير ترابًا، ثم يبعثه الله .والأرض تموت وتصير هشيمًا، ثم يحييها الله بالماء} .وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {]فصلت:.[39

المثال التقريبي:
تخيل أنك تشك في قدرة صانع على إصلاح ساعة معطلة. فتقول: "كيف يمكن إصلاحها وقد تآكلت أجزاؤها؟!". فيأتي الصانع ويأخذ ساعة مماثلة معطلة تمامًا، ويصلحها أمام عينيك. ألا يزول شكك؟!
هكذا فعل الله: أرانا إحياء الأرض الميتة كل عام، ليكون دليلا ً على إحياء الموتى يوم القيامة. وكما أن الأرض الجرز لا تستعصي على الله، فكذلك الأجساد البالية لا تستعصي عليه.

.4"فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا" .. ثمرة الماء النازل

· "فَنُخْرِجُ": الفاء للتعقيب والسببية .بمجرد نزول الماء، يبدأ الإخراج.
· "بِهِ": بالماء .الماء هو سبب الحياة لكل شيء حي .قال تعالى:} وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ] {الأنبياء:.[30
· "زَرْعًا": اسم جنس يشمل كل ما ينبت من الأرض: حبوبًا، فواكه، خضروات، أزهارًا .إنه تنوع يدل على قدرة الله وإبداعه.

التصوير الحي لمشهد الإحياء:
تأمل دورة الحياة أمامك: أرض جرز قاحلة، ترابها متشقق، لا خضرة فيها ولا ماء. ينزل المطر، فتتسرب قطراته إلى باطن الأرض. فجأة، تبدأ البذور الميتة في باطنها تنبض بالحياة. تشق التربة، وتخرج نباتات خضراء يانعة. إنها ولادة جديدة، ومشهد البعث يتكرر كل عام أمام أعيننا.

.5"تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ" .. منافع الزرع للإنسان والحيوان

· "تَأْكُلُ مِنْهُ": الضمير في "منه" يعود على الزرع.
· "أَنْعَامُهُمْ": الإبل والبقر والغنم .قدم الأنعام لأنها تأكل مباشرة من النبات، ولأنها نعمة مسخرة للإنسان.
· "وَأَنفُسُهُمْ": أي وهم أنفسهم يأكلون من هذا الزرع .فالحبوب والخضروات والفواكه كلها غذاء للإنسان.

اللمسة التربوية:
هذا التفصيل في ذكر من يأكل (الأنعام والأنفس) يلفت النظر إلى نعمة الغذاء. الإنسان وحده لا يكفيه ، بل بهائمه أيضًا ترعى من هذا الزرع. إنها رحمة الله الواسعة التي تشمل الإنسان والحيوان. فهل بعد هذه النعم يُكفر بالله؟!

.6"أَفَلَا يُبْصِرُونَ" .. ختام بالتوبيخ والحث على البصيرة

· "أَفَلَا": الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف، و"لا" للنفي .أي: أبعد كل هذه الآيات الواضحة لا يبصرون؟!
· "يُبْصِرُونَ": الإبصار هنا إبصار القلب والبصيرة، وليس مجرد إبصار العين .فهم يرون بأعينهم، لكنهم لا ينتقلون من رؤية العين إلى بصيرة القلب التي توقن بقدرة الله على البعث.

الدرس العملي:
كم منا يرى المطر ينزل، والأرض تحيا، والنبات ينمو، ثم يمر على هذا المشهد وكأنه أمر عادي؟! هذه الآية تدعونا إلى التفكر في هذه الظاهرة، لنستخرج منها يقينًا بقدرة الله، وشكرًا على نعمته، وخوفًا من عقابه.
ثانياً: تفسير الآية الثامنة والعشرين (سؤال المستهزئين عن الفتح)

.1"وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ" .. استهزاء واستعجال للعذاب

· "وَيَقُولُونَ": عطف على ما سبق .أي: ومع كل هذه الدلائل، لا يزالون يقولون...
· "مَتَىٰ": استفهام عن الزمان .يطلبون تحديد موعد استهزاءً وتكذيبًا.
· "هَٰذَا الْفَتْحُ": الفتح هو الحكم والفصل بينهم وبين المؤمنين .وقد كان كفار قريش يسمعون وعيد النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالعذاب يوم بدر أو يوم القيامة، فيقولون استهزاءً: "متى هذا الفتح؟ متى يحكم الله بيننا وبينك؟".

التصوير الحي للمشهد:
تخيل قاضيًا يعلن أن الحكم سيصدر بعد أسبوع. فيقف المجرم ويقول ساخرًا: "متى هذا الحكم؟ أرنا إياه الآن إن كنت صادقًا!". إنه استهزاء بالعدالة، وليس طلبًا حقيقيًا للمعرفة. هكذا كان كفار قريش: يطلبون العذاب استهزاءً، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بأنه سيأتي.

الفرق بين سؤال المستهزئ وسؤال المؤمن:

· المؤمن يسأل عن الساعة خوفًا واستعدادًا: "متى الساعة؟" ليعد العدة.
· المستهزئ يسأل تكذيبًا واستبعادًا: "متى هذا الفتح؟" وهو لا يظن أنه واقع.

.2"إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" .. تحدي المكذبين

· "إِن": شرطية .أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم رسل من عند الله، وأن هناك يوم فصل وقيامة.
· "كُنتُمْ صَادِقِينَ": هذا التحدي يعكس إصرارهم على التكذيب .هم لا يسألون ليؤمنوا، بل ليفحموا النبي صلى الله عليه وسلم في زعمهم .ولكن الله يؤخر الإجابة عن هذا السؤال إلى الآيات التالية، حيث يأتي الرد بالعذاب الواقع يوم بدر، أو بعذاب الآخرة الذي لا ريب فيه.

الرد القادم في الآيات التالية:
سيأتي الجواب في قوله تعالى: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} [السجدة: 29]. وكأن الله يقول: "تسألون عن الفتح استهزاءً؟ سيأتيكم الفتح يوم لا ينفعكم فيه إيمانكم، ولا تؤخرون للتوبة".
ثالثاً: أمثلة تقريبية حسية لتوضيح المفهومين في الآيتين

المثال الأول: إحياء الأرض الميتة (مثال زراعي قريب)

تخيل أنك تملك قطعة أرض جرداء، لا تنبت شيئًا. ترابها ميت، وحجارتها صلبة. يأتي مهندس زراعي خبير، فينظر إليها ويقول: "سأجعل هذه الأرض جنة خضراء". فيسخر منه الجهلاء: "كيف؟! إنها ميتة!".

يبدأ المهندس عمله: يسوق الماء من بئر عميقة عبر قنوات، وينثره على الأرض. وبعد أسابيع قليلة، تبدأ البراعم الخضراء تظهر. وتتحول الأرض الميتة إلى حقل يانع، تأكل منه أنت وبهائمك.

ألا يكون هذا المهندس قادرًا على إحيائها مرة أخرى لو ماتت؟! فكيف بالله خالق الأرض والماء؟!

هكذا إحياء الموتى: الأجساد في القبور كالأرض الجرز. ينزل الله ماء الحياة (بأمره)، فإذا الأجساد تنبت وتخرج من قبورها. {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [المعارج: 43].
المثال الثاني: سؤال المستهزئ عن الفتح (مثال قضائي)

تخيل محكمة تنظر في قضية خطيرة. المتهم مستهتر، يسخر من القاضي ومن الشهود. يقول للقاضي: "متى ستصدر حكمك أيها القاضي؟ أرني إياه الآن إن كنت صادقًا!".

القاضي الحكيم لا يجيبه، بل يؤجل النطق بالحكم إلى الجلسة الختامية. وفي اليوم الموعود، يصدر حكمًا قاسيًا على المتهم. عندها، يتوسل المتهم ويطلب الرحمة. فيقول القاضي: "لقد كنت تسأل عن الحكم استهزاءً، فها هو الحكم قد جاءك. أما الآن، فلا ينفعك ندمك!".

هكذا حال المستهزئين بالبعث والفتح: يسألون عنه استهزاءً، فإذا جاءهم الفتح (يوم بدر أو يوم القيامة)، آمنوا وطلبوا النجاة، فقيل لهم: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: 91].
رابعاً: الدروس المستفادة من الآيتين

الدرس الأول: التدبر في آيات الله الكونية يورث اليقين

}أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ .{...من يتأمل دورة الماء، وإحياء الأرض الميتة، يزداد يقينًا بقدرة الله على البعث .لا تمر على هذه الآيات مرورًا عابرًا، بل تفكر فيها.

الدرس الثاني: كل نعمة تستوجب شكرًا

}تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ .{الطعام الذي تأكله، والماء الذي تشربه، كلها نعم من الله .من شكرها، زاده الله .ومن كفرها، عاقبه.

الدرس الثالث: الاستهزاء بآيات الله دأب المكذبين

}وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ .{هكذا كان أعداء الرسل عبر التاريخ: يستهزئون بالوعد والوعيد .والمؤمن لا يستهزئ، بل يخاف ويستعد.

الدرس الرابع: العذاب يأتي بغتة

سؤالهم {مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ} استهزاء، لكنه سيأتيهم فجأة وهم لا يشعرون. هذا يعلمنا ألا نأمن مكر الله، وألا نستبطئ وعد الله.
خامساً: دور الآيتين في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولا ً: في بناء الشخصية المسلمة

.1تنمية ملكة التفكر والتدبر:
الآية الأولى} أَوَلَمْ يَرَوْا {تدعو المسلم إلى أن يكون صاحب عين فاحصة، تنظر إلى الكون نظر معتبر ومتفكر، لا نظر غافل لاهٍ.
.2تربية اليقين بالبعث:
رؤية إحياء الأرض كل عام تثبت حقيقة البعث في قلب المسلم .هذا اليقين يجعله يعمل للآخرة وكأنه يراها.
.3التحذير من الاستهزاء بالمقدسات:
الآية الثانية تحذر من داء الاستهزاء الذي يصيب القلب فيقسيه .المسلم يوقر آيات الله ووعيده، و لا يجعلها موضع سخرية.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم

.1نشر ثقافة الشكر على النعم:
المجتمع الذي يتأمل في} نَسُوقُ الْمَاءَ {و}نُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا{، هو مجتمع شاكر لله، محافظ على النعم، مستثمر لها في الخير.
.2التكافل في الغذاء:
ذكر} الْأَنْعَامُ {و}الْأَنفُسُ {يذكر المجتمع بأن الرزق يجب أن يصل إلى الجميع، بشرًا وبهائم .فلا

يجوع إنسان ويشبع آخر، ولا تموت بهيمة وأخرى ترعى.

ثالثاً: في بناء الحضارة والتنمية

.1الاستفادة من دورة الماء في الزراعة والصناعة:
} تسُوقُ المَاءَ {إشارة إلى أهمية إدارة المياه في الحضارة .الحضارات قامت على ضفاف الأنهار، وازدهرت بحسن سوق الماء إلى الأراضي الزراعية.
.2الأمن الغذائي واجب ديني:
} تأكلُ مِنْهُ أنعَامُهُمْ وَأنفُسُهُمْ {توجيه إلى تحقيق الأمن الغذائي للمجتمع .الدولة المسلمة مطالبة بتوفير الغذاء لشعبها، كما يسوق الله الماء ويخرج الزرع رزقًا لعباده.
سادساً: كيف نطبق هاتين الآيتين في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1رحلة تأمل أسبوعية:
خصص وقتًا أسبوعيًا (نصف ساعة) تخرج فيه إلى الطبيعة: حديقة، مزرعة، صحراء. تأمل الأرض الجرز كيف تكون، ثم تأمل الأرض المخضرة بعد المطر. قل بقلبك: {سُبْحَانَ الَّذِي أَحْيَا هَٰذِهِ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ}.

.2شكر النعمة عند كل وجبة:
قبل أن تأكل، تذكر أن هذا الطعام خرج من أرض جرز بماء ساقه الله. قل: "الحمد لله الذي سقانا الماء، وأخرج لنا به زرعًا نأكل منه". هذا يحول الأكل إلى عبادة.

.3تجنب الاستهزاء بالدين وأهله:
احذر من السخرية بالمتدينين أو بأحكام الدين، ولو بمزاح. فإن هذا من شيم المنافقين. وإذا رأيت من يستهزئ، فأنكر عليه برفق، أو قم من مجلسه.

.4نشر ثقافة "الفتح" الإيجابي:
بدل أن نستعجل الفتح بمعنى العذاب، نستعجل الفتح بمعنى النصر والتمكين للمؤمنين. ندعو الله: "اللهم افتح لنا فتحًا مبينًا، وانصرنا على أعدائك". ونعمل للوصول إلى هذا الفتح بالصبر واليقين.
خاتمة: رسالة الآيتين إلى قلبك

أيها العبد، إن الأرض الجرز تموت وتحيا أمام عينيك كل عام. إنها آية كونية تذكرك بأنك ستموت وتبعث. فاستعد ليوم الفتح الحقيقي، يوم يفصل الله بين العباد.

لا تكن من المستهزئين الذين يسألون: {مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ}، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. بل كن من المؤمنين الصادقين، الذين يبصرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فيزدادون يقينًا، ويستعدون للحساب.

المبحث الرابع

أيها المتدبر، يا من سمعت استهزاء المكذبين وسؤالهم: {مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ}، ويا من أبصرت آيات الله في إحياء الأرض الميتة... ها أنت الآن تصل إلى خاتمة المطاف في هذه السورة المباركة، حيث يأتي الجواب القاطع على سؤال المستهزئين، والأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعده بكيفية التعامل مع المعاندين. إنهما آيتان تحملان في طياتهما الوعيد والتثبيت والأمل والصبر، وتختمان السورة بما يليق بجلالها.

بعد أن قال المكذبون استهزاءً: {مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، يأمر الله نبيه أن يجيبهم بجواب يقطع الاستهزاء، ويؤكد الحقيقة المرة: إن الفتح آتٍ لا محالة، ولكنه حين يأتي، لا ينفع الإيمان ولا تقبل التوبة. ثم يختم السورة بتوجيه عملي للنبي والمؤمنين: أعرض عنهم وانتظر. إنه مزيج من الإنذار والطمأنينة.

تعال نعش مع قوله تعالى:
{قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (30)} [السجدة: 29-30]

تمهيد: الربط بين سؤال المستهزئين وجواب الختام

في الآية (28)، كان السؤال: {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ}. هذا السؤال لم يكن استعلامًا صادقًا، بل

استهزاءً وتكذيبًا. وها هو الجواب يأتي في الآية (29): {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}.

لم يحدد الله لهم موعدًا زمنيًا، لأن تحديد الموعد لا ينفعهم، بل قد يزيدهم طغيانًا. بدلا ً من ذلك، بين لهم صفة ذلك اليوم: إنه يوم لا ينفع فيه إيمان، ولا إنظار (لا تأخير ولا مهلة). وكأن الآية تقول لهم: "لماذا تستعجلون؟ إنه يوم سيأتي، وحين يأتي، ستندمون حيث لا ينفع الندم. إن كنتم تريدونه حقًا، فاعلموا أنه يوم خسرانكم الأبدي".

ثم يأتي الأمر في الآية (30): {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ}. بعد أن بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأقام الحجة، لم يبق إلا الإعراض عن جدالهم العقيم، وانتظار وعد الله الذي لا يتخلف.
أولا ً: تفسير الآية التاسعة والعشرين (جواب الفتح)

1."قُلْ" .. الأمر بالبلاغ عن الله

· "قُلْ": أمر من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب هؤلاء المستهزئين بهذا الجواب .إنها كلمة فصل، وخبر من الله لا يحتمل الشك .والنبي مأمور بتبليغه كما هو، دون زيادة أو نقصان.
· اللمسة التربوية:
هذا الأمر يعلم الداعية أن يرد على الشبهات والأسئلة الاستهزائية بما أمر الله، لا بما يمليه عليه غضبه أو هواه} .قُلْ {أي: قل كلام الله، فهو أبلغ وأوقع في النفوس.

2."يَوْمَ الْفَتْحِ" .. تحديد ظرف الزمان بوصفه لا بوقته

· "يَوْمَ": ظرف زمان، وهو جواب السؤال عن "متى" .لكن الجواب لم يأتِ بتاريخ محدد، بل بوصف اليوم وأهواله .وهذا أبلغ في التهديد.
· "الْفَتْحِ": الفتح هو الحكم والفصل بين الخصمين .والمراد به:
· في الدنيا: يوم بدر، حيث حكم الله بين المؤمنين والمشركين، ونصر المؤمنين نصرًا مؤزرًا، وأذل المشركين.
· في الآخرة: يوم القيامة، حيث يفصل الله بين العباد، ويحكم بالجنة للمؤمنين وبالنار للكافرين.

اللمسة البيانية:
وصف اليوم بـ "الفتح" دون تحديد زمني، يوحي بأن هذا اليوم محتوم، ولكنه مخفي الوقت. وهذا ا لإخفاء يزيد المكذبين قلقًا، لأنهم لا يدرون متى يفاجئهم. أما المؤمنون، فهم في انتظار وعد الله، واثقين أنه آتٍ.

3."لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ" .. خسران الإيمان بعد فوات الأوان

· "لَا يَنفَعُ": نفي قاطع .إيمانهم في ذلك اليوم عديم الفائدة، لا يدفع عنهم عذابًا، ولا يجلب لهم نفعًا.
· "الَّذِينَ كَفَرُوا": وصفهم بالكفر، وهو سبب استحقاقهم لهذا المصير.
· "إِيمَانُهُمْ": أي إيمانهم في ذلك اليوم، بعد أن رأوا العذاب أو الموت أو القيامة .إنه إيمان اضطرار، لا إيمان اختيار .وقد جرت سنة الله أنه لا يقبل إيمان اليأس.

التصوير الحي للمشهد:
تخيل سفينة تغرق في بحر هائج. قبطانها كان مستهترًا، يسخر من تحذيرات المرشدين. وعندما بدأت السفينة بالغرق، صرخ: "آمنت! صدقتكم! أنقذوني!". ولكن هيهات! السفينة تغرق، ولا منقذ. إيمانه في لحظة الغرق لا ينفعه، لأنه جاء بعد فوات الأوان.

هكذا الكافرون: في الدنيا يدعونهم الرسل إلى سفينة النجاة (الإيمان)، فيستهزئون. فإذا جاءهم الفتح (الموت أو القيامة)، آمنوا وصرخوا: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا} [السجدة: 12]. فيقال لهم: {لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}. لقد فات الأوان!

الفرق بين إيمان الدنيا وإيمان الآخرة:

· إيمان الدنيا: إيمان غيب، مبني على الاختيار والتصديق بالرسل .هذا هو الإيمان النافع.
· إيمان الآخرة: إيمان شهادة، مبني على الاضطرار بعد رؤية العذاب .هذا الإيمان غير مقبول.

4."وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ" .. لا مهلة ولا تأخير

· "وَلَا": عطف نفي .لا ينفعهم إيمانهم، ولا هم يمهلون.
· "يُنظَرُونَ": من الإنظار، وهو التأخير والإمهال .أي: لا يؤخرون ليتوبوا، ولا يمهلون ليصلحوا ما أفسدوا .العذاب واقع بهم، ولا مهلة بعد ذلك.

التصوير المزدوج للحرمان:

· حرمان من النفع: إيمانهم لا ينفعهم.
· حرمان من الزمن: لا يؤخرون ولا يمهلون.

وكأنهم في زنزانة مغلقة، لا مفتاح لها، ولا أحد يفتح لهم الباب. لقد ضاعت الفرصة إلى الأبد.
ثانياً: تفسير الآية الثلاثين (الأمر بالإعراض والانتظار)

.1"فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" .. التوجيه الإلهي للنبي والمؤمنين

· "فَأَعْرِضْ": الفاء للتفريع .أي: بعد أن بلغت الرسالة، وأقمت الحجة، وأجبتهم بهذا الجواب، أعرض عنهم.
· الإعراض هنا ليس ترك الدعوة، بل هو:
· ترك الجدال العقيم معهم بعد وضوح الحق.
· عدم الالتفات إلى استهزائهم وطعنهم.
· ترك الانشغال بهم نفسيًا وعاطفيًا، بعد أن استحقوا غضب الله.

اللمسة النفسية:
هذا الأمر تخفيف عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتحرير له من همّ هدايتهم بعد أن اختاروا الضلا ل. إنه يقول له: "لقد أديت ما عليك، والآن اتركهم وشأنهم. لا تحمل همهم بعد اليوم، فهم قوم لا خير فيهم". وهذا يمنح الداعية سلامًا نفسيًا، ويعلمه أن الهداية بيد الله، لا بيده.

المثال التقريبي:
تخيل طبيبًا يعالج مريضًا عنيدًا. يصف له الدواء، ويشرح له بالتفصيل، ويناشده أن يتناوله. والمريض يرفض، بل ويسخر من الطبيب. بعد محاولات مضنية، يقول الطبيب لنفسه: "لقد فعلت ما عليّ، والآن أعرض عنك". هذا الإعراض ليس ضعفًا، بل هو حكمة وصيانة للطاقة لاستثمارها في مرضى آخرين يريدون الشفاء حقًا.

.2"وَانتَظِرْ" .. الانتظار الواثق بوعد الله

· "وَانتَظِرْ": أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بانتظار وعد الله .وماذا ينتظر؟
· النصر على أعدائه في الدنيا.
· حسن العاقبة في الآخرة.
· انتظار المؤمن انتظار واثق مطمئن .إنه انتظار الفرج، وانتظار الجزاء الحسن .قال تعالى:} وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا] {الأنعام:.[115

.3"إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ" .. انتظار المكذبين لنقيض ما ينتظره المؤمن

· "إِنَّهُم": توكيد .هم أيضًا ينتظرون.
· "مُّنتَظِرُونَ": ماذا ينتظرون؟
· انتظار الشر: ينتظرون أن يصيب المؤمنين مكروه، أو أن يموت النبي صلى الله عليه وسلم وتنتهي دعوته .كما قالوا:} نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ] {الطور:.[30
· انتظار العذاب: وهم لا يشعرون، ينتظرون الفتح الذي استهزؤوا به، وسيأتيهم بغتة.

المقابلة العجيبة بين الانتظارين:

· المؤمن ينتظر الخير) النصر، الجنة.(
· الكافر ينتظر الشر) الهزيمة، النار.(
· المؤمن ينتظر وعد الله بيقين.
· الكافر ينتظر ما يتمناه للمؤمنين من سوء، ولكن الله يخيب ظنهم ويجعل الدائرة عليهم.

المثال التقريبي:
تخيل فريقين في سباق. الفريق الأول تدرب جيدًا، ويثق في فوزه، وينتظر لحظة إعلان النتيجة بفارغ الصبر والفرح. الفريق الثاني مستهتر، لم يتدرب، لكنه يتمنى فوزًا سهلًا، وينتظر أيضًا، ولكن بقلق وخوف. في النهاية، يفوز الفريق الأول، وينكسر الفريق الثاني.

هكذا المؤمنون والكافرون: كلاهما ينتظر، ولكن شتان بين الانتظارين. {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ} [التوبة: 52].
ثالثاً: أمثلة تقريبية حسية لتوضيح مفهومي الآيتين

المثال الأول: يوم الفتح (مثال الطالب والامتحان)

تخيل طالبين في المدرسة:

· الأول: مجتهد، يذاكر دروسه طوال العام، ويؤمن بأن الامتحان آتٍ، ويستعد له.
· الثاني: مستهتر، يلعب ويسخر من الطالب المجتهد، ويقول: "متى الامتحان؟ إن كنتم صادقين! أروني إياه الآن!".

يأتي يوم الامتحان (الفتح). الطالب المستهتر يدخل القاعة، ويرى الأسئلة، فيصاب بالرعب. يريد أن يذاكر الآن، يريد أن يؤمن بأهمية الامتحان، ولكن هيهات! {لَا يَنفَعُ} ندمه ولا إيمانه المتأخر. يُرفع القلم ، وتُغلق الدفاتر. أما الطالب المجتهد، فيكتب بثقة، وينتظر النتيجة بفرح.

هكذا يوم الفتح: يوم لا ينفع فيه إيمان المستهترين، ولا هم يمهلون ليتداركوا ما فات.
المثال الثاني: الإعراض والانتظار (مثال البستاني والأرض)

تخيل بستانيًا زرع أرضًا، وسقاها، وتعهدها بكل عناية. لكن بعض البذور لم تنبت، وبقيت الأرض جرداء. حاول البستاني معها مرارًا، فلم تثمر. أخيرًا، قال: "سأعرض عن هذه البقعة، وأركز على ما أنبت وأثمر". ثم انتظر موسم الحصاد بفارغ الصبر.

هكذا الداعية: يعرض عن المعاندين بعد استنفاذ الجهد، وينتظر ثمرة دعوته في المستجيبين، ووعد الله بالنصر. أما المعاندون، فهم ينتظرون ما تبقى لهم من متاع الدنيا، ثم يلقون جزاءهم.
رابعاً: الدروس المستفادة من الآيتين

الدرس الأول: اليقين بأن الإيمان بعد فوات الأوان لا ينفع

لا تغتر بإمهال الله لك. بادر بالتوبة اليوم، قبل أن يأتي يوم {لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [الأنعام: 158].

الدرس الثاني: الإعراض عن الجدال العقيم حكمة

ليس كل سؤال يُجاب، وليس كل جدال يُخاض. إذا رأيت الحق واضحًا، والمعاند مصرًا على عناده، فأعرض عنه، واستثمر وقتك وجهدك فيما ينفع.

الدرس الثالث: انتظار الفرج عبادة

انتظار وعد الله بيقين وصبر هو من أجل العبادات. لا تستبطئ النصر، ولا تيأس من روح الله. {وَانتَظِرْ} بقلب مطمئن، فالله لا يخلف الميعاد.

الدرس الرابع: الكفار ينتظرون بالمؤمنين دوائر السوء

لا تظن أن أعداء الدين غافلون عنك. إنهم يتربصون بك، وينتظرون زلتك، ويدبرون المكائد. ولكن الله يكفيك شرهم، ويرد كيدهم في نحورهم.
خامساً: دور الآيتين في بناء الشخصية المسلمة والحضارة والمجتمع والتنمية البشرية

أولاً: في بناء الشخصية المسلمة

.1تربية الصبر والثبات:
الأمر} وَانتَظِرْ {يبني في نفس المسلم قوة الصبر والثبات على الحق مهما طال الزمن .إنه يزرع ثقافة النفس الطويل.
.2التحرر من القلق على هداية الخلق:
} فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ {يعلم الداعية أن يهتم بالتبليغ لا بالنتائج .النتائج بيد الله .هذا التحرر يقي الداعية من الاحتراق النفسي.
.3استثمار الوقت فيما ينفع:
بدل إضاعة الوقت في جدال المعاندين، يوجهنا الله إلى استثمار الوقت في بناء الذات، ودعوة المستجيبين، وإعمار الأرض.

ثانياً: في بناء المجتمع المسلم

.1تعزيز ثقافة العمل لا الجدل:
المجتمعات التي تنشغل بالجدل العقيم تضيع طاقاتها .هذه الآية توجه المجتمع إلى العمل البناء، وترك الجدل مع من لا يريدون الخير.
.2تقوية الجبهة الداخلية:
} وَانتَظِرْ {تذكر المجتمع المسلم بأن العدو ينتظر أيضًا .هذا يستدعي اليقظة، وتقوية الصف الداخلي ، والاستعداد الدائم.

ثالثاً: في بناء الحضارة والتنمية

.1نموذج القيادة المتزنة:
القائد الرباني يعرض عن السفهاء، ولا ينشغل بهم، وينتظر ثمرة عمله بصبر ويقين .هذا النموذج القيادي يبني حضارة مستقرة، لا تتأثر بضوضاء المثبطين.
.2التخطيط الاستراتيجي طويل المدى:
} وَانتَظِرْ {ليست سلبية، بل هي انتظار إيجابي، يرافقه عمل دؤوب لتحقيق الهدف .الحضارة تحتاج إلى خطط طويلة المدى، مع صبر على تنفيذها، ويقين بالوصول إلى الهدف.
سادساً: كيف نطبق هاتين الآيتين في حياتنا؟ (برنامج عملي)

.1بادر بالتوبة اليوم:
لا تقل: "سأتوب غدًا". تذكر أن {يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}. كل يوم تعيشه هو فرصة. فلا تضيعها.

.2تمرين عملي على الإعراض الحكيم:
عندما تدخل في نقاش مع شخص هدفه الجدل لا الفهم، تذكر {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}. أنهِ النقاش بلطف، وقل: "هداك الله، ولكل منا رأيه". هذا يوفر طاقتك لما هو أنفع.

.3تحويل الانتظار إلى عبادة:
كلما شعرت بضيق أو استبطأت فرجًا، قل: "اللهم إني أنتظر فرجك، وأرجو رحمتك، وأثق بوعدك". هذا يحول وقت الانتظار من وقت قلق إلى وقت عبادة واتصال بالله.

.4مراقبة كيد الأعداء بيقظة:
}إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ {تذكرك بأن أعداء الإسلام لا ينامون .كن يقظًا، واعمل على تقوية نفسك وأمتك علميًا واقتصاديًا وعسكريًا، حتى لا يجدوا فينا ثغرة.

.5ختم السورة بتدبر:
اجعل من عادتك عند ختم أي سورة أن تقف متأملا ً في خاتمتها. خاتمة السجدة تجمع التهديد و التربية والتوجيه. اقرأ الآيتين بتدبر، واسأل الله أن يجعلك من المنتظرين لوعده بالخير، لا من المنتظرين للعذاب.
خاتمة جامعة: رسالة الآيتين وخاتمة السورة إلى قلبك

أيها العبد، لقد ختم الله سورة السجدة بهذا الأمر الحاسم: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ}. إنها وصفة النجاة في زمن الفتن والاستهزاء. لا تنشغل بالمعاندين، ولا تلتفت إلى استهزائهم. أعرض عنهم، وانتظر وعد الله. فهو آتٍ لا محالة.

وتذكر أن يوم الفتح قادم. فاستعد له بالإيمان والعمل الصالح قبل أن يأتي يوم {لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في تفسير سورة السجدة

أولا ً: أمهات كتب التفسير بالمأثور
1جامع البيان في تأويل آي القرآن) تفسير الطبري (ابن جرير الطبري تفسير بالمأثور
2تفسير القرآن العظيم) تفسير ابن كثير (ابن كثير تفسير بالمأثور
3الجامع لأحكام القرآن) تفسير القرطبي (القرطبي تفسير فقهي
4مفاتيح الغيب) التفسير الكبير للرازي (الفخر الرازي تفسير عقلي
5الكشاف عن حقائق التنزيل الزمخشري تفسير بلاغي
6البحر المحيط) تفسير أبي حيان (أبو حيان الأندلسي تفسير لغوي
7روح المعاني في تفسير القرآن العظيم الآلوسي تفسير جامع
8في ظلال القرآن سيد قطب تفسير حركي
9التحرير والتنوير ابن عاشور تفسير مقاصدي
10تفسير ابن عثيمين ابن عثيمين تفسير مبسط
ثانيا: المراجع اللغوية والمعجمية

1لسان العرب ابن منظور معجم لغوي شامل
2مفردات ألفاظ القرآن الراغب الأصفهاني معجم ألفاظ القرآن
3معجم المعاني الجامع موقع Almaany معجم إلكتروني
ثالثا: المصادر البلاغية والبيانية

1الكشاف عن حقائق التنزيل) سابق (الزمخشري
2دلالتا الحذف والتقديم والتأخير في سورة السجدة) دراسة أكاديمية(
3التناسب البلاغي في سورة السجدة محمد عبده العمريطي
4دراسة لغوية وبلاغية لسورة السجدة دار الكتب العلمية
5البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) دراسة أكاديمية(

رابعا: المصادر التربوية والنفسية

1التوجيهات التربوية وأساليبها المستنبطة من سورة السجدة دراسة قرآنية موضوعية
2أول مرة أتدبر القرآن - سورة السجدة دار التزكية
3تدبر سورة السجدة) جميع الدروس (مركز السلام التعليمي
4تفسير سورة السجدة للشيخ الشعراوي) خواطر إيمانية(
5هدايات آيات سورة السجدة مجموعة مؤلفين
6مقاصد سورة السجدة إسلام ويب
خامسا: مصادر التنمية البشرية وبناء الحضارة
1التنمية البشرية في القرآن الكريم د .طلال فائق الكمالي
2تنمية الإنسان في القرآن وليد خالد الربيع
3جدد حياتك الشيخ محمد الغزالي
4استمتع بحياتك د .محمد العريفي
5سورة السجدة) سلسلة دروس للداعية النابلسي (د .محمد راتب النابلسي

سادسا: مصادر الإعجاز العلمي

1موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة مجموعة باحثين
2الإعجاز العلمي في القرآن) سورة السجدة (مواقع إلكترونية متخصصة

سابعا: كتب السنة والمصادر الحديثيه

1صحيح البخاري الإمام البخاري
2صحيح مسلم الإمام مسلم
3سنن أبي داود أبو داود
4سنن الترمذي) جامع الترمذي (الترمذي
5مسند الإمام أحمد أحمد بن حنبل
6مسند الدارمي الدارمي

ثامناً: المواقع الإلكترونية والمكتبات الرقمية

1موقع إسلام ويب مكتبة إسلامية شاملة
2مشروع المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود تفاسير ومصاحف
3موسوعة قرآن بيديا تفاسير متعددة
4شبكة الألوكة مقالات وبحوث
5موقع نداء الإيمان مكتبة إسلامية
6موقع طريق الإسلام كتب ودروس
7المكتبة الشاملة مكتبة رقمية ضخمة
8موقع أرشيف الكتب
9موقع كتب إلكترونية
10موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية دراسات متخصصة
11شبكة القرآن الكريم تفاسير متعددة
12موقع الدرر السنية الموسوعة الحديثية
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامرى

بسم الله الرحمن الرحيم
ختاما

ها نحن نطوي صفحات هذه الرحلة المباركة مع سورة السجدة، وقد تجوّلنا في رحاب آياتها الثلاثين، من مشهد "تنزيل الكتاب لا ريب فيه" إلى مشهد "فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون" .لقد كانت هذه السورة دستوراً للقلب، ورحلةً من ظلمات الشك إلى أنوار اليقين، ومن استعباد الخلق إلى حرية العبودية للخالق، ومن الغفلة عن الآخرة إلى الشوق للقاء الرب الكريم.

لقد علّمتنا السورة أن العزة الحقيقية هي في السجود لله وحده، وأن الكرامة الحقة هي في حمل أمانة الروح التي نفخها الله فينا، وأن الطريق إلى الإمامة والتمكين يمر حتماً عبر الصبر واليقين .وما كان هذا التدبّر ليكتمل لولا أن توجته تلك الآية التي تفجّر في القلب ينابيع الأمل والرجاء: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، فكانت وعداً خفياً يدفع المؤمن للعمل في الخفاء، ليجد جزاءه يوم اللقاء مخبُوءاً لا يخطر على قلب بشر.

رساله شكر وتقدير

وبعد، فإن هذا العمل الذي بين أيديكم لم يكن ليخرج بهذه الصورة المشرقة، وبهذا الضبط المتقن، إلا بفضل الله وتوفيقه، ثم بجهود من سخّروا علمهم ووقتهم ليكون هذا الكتاب نفعه أعمّ وأثراه أدوم.

وفي مقدمتهم أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ القدير/ منير عبد عثمان الصلوي، الذي تفضّل مشكوراً بالمراجعة والتدقيق الفني واللغوي والموضوعي لمحتوى هذا الكتاب .لقد كان لخبرته الواسعة وعينه الفاحصة الأثر البالغ في تجويد النص، وتحرير العبارة، وتوثيق المعلومة، حتى جاء هذا العمل متسقاً في مبناه، رصيناً في معناه، محققاً للغايات التي صُنف من أجلها.

فجزاه الله عني وعن كل قارئ ومتدبّر خير الجزاء، وجعل ما بذله من جهد في ميزان حسناته، ونفع به وبعلمه الإسلام والمسلمين.
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التوصية الختامية

إن قراءة هذا الكتاب ليست نهاية المطاف، بل هي بداية لانطلاقة جديدة مع كتاب الله .فاجعل من هذه السورة وردا متدبّراً في صلاتك، وفي جوف ليلك، تصحبك بركتها، وتنير دربك آياتها، وتكون لك شفيعة يوم القيامة.
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش العامري